روح
لحظة
بالغائبين
أثير عبدالله النشمي
دبير للنشر و التوزيع
٢٧٠٦٨٢٠٠٥٣

الإهداء

"لا شيء يُمكنه إعادة ما مضى

أنا لن أعودَ وأنتَ لن تنساني"

روضة الحاج

لا زلتَ جريئًا ووقحًا كما عهدتك!

تُطالعني ابتسامتك الساخرة، اللا مُبالية المرفقة بسيرتك الذاتية بتحدٍّ جلي، طفولي وتافه.

أقرأ سيرتك للمرة المائة خلال هذا الأسبوع لعلني أجد فيها ما لم أعرفه عنك، لأجلك تمامًا كما كُنت وكأن الزمن قد توقف بك ولم تتجاوزه، أو ربما لم يتمكن هو من أن يتجاوزك.

أنظر إلى حالتك الاجتماعية بتمعن لا مُبرر له، وكأن شيء ما بداخلي يحتاج لأن يطمئنه ويؤكد له ما هو متأكد منه..

أبتسم بسخرية على الرُغم مني: " Single "! ... أعزبٌ ببساطة، كما أتوقع وكما أعرف وكما يُفترض ويتوقع أن تكون..

وكأنك اعتقدت أنني لا أتوقع ولا أعرف بأنك ستظل عازبًا حتى هذا الوقت أو ربما إلى الأبد!

أُفكر فيما أردت أن توصله لي من خلال تقدمك بطلب وظيفة إلى مقر عملي بعد مرور كُل هذا العُمر وبهذه الفجاجة؟!

كيف لم تُغير فيك كل هذه الأيام أي شيء؟! وكيف تتحداني بهذه المباشرة وهذا الشكل السافر؟!

كُنت مُتيقنة من أنك ستعترضني حالما تعود. أمثالُك لا ينسون ولا ينتهون ولا يفلتون أي شيء، يظلون عالقين في كُل الحكايات التي مروا بها في حياتهم حتى بعد أن يشعلوا فيها النيران ويفسدوها، وبعدما ينثرون رماد علاقاتهم منتحبين على ما مضى، وكأنهم لم يُشعلوا النيران فيها بملء إرادتهم وبكامل اختيارهم.

ينتشلني من بين سطور سيرتك تنبيه "إعجاب" من منصة X على هاتفي، لأجدك قد سجلت إعجابك بـ "صباح الخير" التي قمت بتغريدها قبل أكثر من ساعتين..

مُتأخر في الاستيقاظ كعادتك. تُسجل إعجابك كُل يومِ بصباح الخير وبتصبحون على خير، وكأنك مضطر على رد التحية بمُعرف غريب تُدرك تمامًا أنني أعرف معناه وأعرف أنك خلفه..

عشر سنواتِ مضت، تغيرتُ أنا كثيرًا فيها، لكنك تبدو تمامًا كما أنت، كما كُنت!

رميتُ هاتفي على الأوراق التي تحمل سيرتك الذاتية، وأنا أُفكر مُبتسمة.. "متى ستمل؟! متى ستنضج؟! متى ستتغير؟!"

أُدير محرك سيارتي، أختار عُمر خيرت ليرافقني إلى المنزل ويراقصني طوال الطريق كعادتهِ وكعادتي في طريقِ العودة..

أشتاق وأتوق لأن أرى طفليّ الصغيرين فيصل وتركي اللذين كُنت أراقبهما طوال اليوم عن طريق أجهزة المراقبة المنتشرة في منزلي والمربوطة مُباشرة بهاتفي لتنقل إلي طوال الوقت بنقل حي كُل ما يفعلونه أثناء تواجدهما بداخلِ البيت في غيابي.

أُفكر فيما لو لم تكن التقنية مُعاونة ومُناصرة ومُتعاطفة مع الأمهات إلى هذا الحد؟! أكُنت سأتخلى عن عملي وأحلامي واستقلاليتي لأبقى مُطمئنة عليهما وبمعيتهما؟!

أشعر أحيانًا وكأنني أحتاج لأن أقاوم أمومتي لهما، لأن أحاول أن أتنصل من كُل مشاعر التعلق التي تربطني بهما، لأنني أُدرك تمامًا كم تضعفنا مشاعر التعلق وكم تجعلنا في غاية الضعف ومُنتهى الهشاشة!

أظن بأنك تُدرك هذا!.. تُدرك جيدًا بأنك لطالما كُنت الدرس الكبير الذي تعلمت منه كيف من الممكن أن يشوهنا ويمزقنا التعلق..

كيف يجعلنا عُرضة للاستغلال والتحكم والابتزاز والتخبط والتبعثر وفقدان جوهر أنفسنا، حتى نتيه عنها فنغدو نسخًا أُخرى لا تمت لحقيقتنا في شيء..
مضى أكثر من عقد على آخر تواصل حقيقي بيننا.. عقد كامل لم أتجاوز فيه طعم المرارة التي لا زلت أشعر بها عندما أذكرك..

مضى وقت طويل، عمر كامل، لكنني غير قادرة على أن أتجاوزَ مشاعر الحنق والازدراء والغضب التي تخنقني ما إن تطرأ على ذهني أو تمر به مُتسللًا أو عابرًا..

المؤسف أنني أتذكرك كثيرًا! ليس كُل يومٍ بطبيعة الحال، لكنني أتذكرك كثيرًا! بمُناسبةٍ وبدونِ مُناسبة، بقصد وبدونِ قصد..
وكيف لا أذكرك يا عزيز؟! وأنت تفرض وجودك عليَّ حتى في غيابك!

لا زلت تطلُ عليّ بين الحينِ والآخر بجرأةٍ وفضول وبلا حياءٍ ولا خوفٍ كطبيعتك التي لم تتغير..

أليس من الغريبِ أن أكره فيك أكثر ما كُنت أحبه بك؟! ذلك الإلحاح الذي لطالما أشعرني برغبتك الحادة بي وتوقك الدائم لي هو ذاته ما بتُّ أكرهه فيك اليوم وما أصبحتُ أتوجس منه!

أُفكر أحيانًا يا عزيز، هل كان سيسعدني تجاوزك إياي؟! هل كُنت سأتجاوزك لو كُنتَ قد مضيت وتجاهلتني بلا اهتمام ولا التفاتة؟!

أليس من الغريب أن تغيب عندما أحضر، وتجيء حينما أغيب؟!

أذكر أنني سألتك ذلك يومًا فاستشهدت بأغنية نوال الكويتية "قصتنا أنا وإياك مثل شمس وقمر، من أول الوقت حتى آخره ما يلتقون، كلٌ يدور صاحبه!".

لا زلت تطلُ عليّ بين الحينِ والآخر بجرأةٍ وفضول وبلا حياءٍ ولا خوفٍ كطبيعتك التي لم تتغير..

أليس من الغريبِ أن أكره فيك أكثر ما كُنت أحبه بك؟! ذلك الإلحاح الذي لطالما أشعرني برغبتك الحادة بي وتوقك الدائم لي هو ذاته ما بتُّ أكرهه فيك اليوم وما أصبحتُ أتوجس منه!

أُفكر أحيانًا يا عزيز، هل كان سيسعدني تجاوزك إياي؟! هل كُنت سأتجاوزك لو كُنتَ قد مضيت وتجاهلتني بلا اهتمام ولا التفاتة؟!

أليس من الغريب أن تغيب عندما أحضر، وتجيء حينما أغيب؟!

أذكر أنني سألتك ذلك يومًا فاستشهدت بأغنية نوال الكويتية "قصتنا أنا وإياك مثل شمس وقمر، من أول الوقت حتى آخره ما يلتقون، كلٌ يدور صاحبه!".

وبقدرِ ما كُنت أُدرك كم تستمتع بهذه المطاردة، أنت الهارب المطارد، بقدرِ ما مللت وتعبت أنا من هذه اللعبة..

صدقني أنا لم أعد أحتاج لحضورك، لم يَعُد يعنيني حضورك الآن بقدرِ ما كان يمزقني غيابك آنذاك..

أنا على يقين من أنك لم تتغير وبأنك لن تتغير، أمثالك لا يتغيرون، لا يبرحون المكان، يستمرون بنفس العِناد وذات التشبث ولا يغيرون أراءهم حيال الأحداث والمواقف والبشر مهما أثبتت لهم التجارب ودللت لهم الأدلة وبرهنت لهم البراهين..
أما أمثالي، فيتسممون عادة بأمثالك، يتمزقون ويتهشمون، يغرقون في دوامةِ الحُزن، ويتجرعون أشد أنواع المرارة..

لكنهم يتجاوزون بعد فترة طويلة من الزمن، وعندها أو بعدها.. ينتهون ممن سقطوا خلفهم نهائيًّا وإلى الأبد، بلا تراجع ولا ندم..

تجاوزتك!

صدق أو لا تصدق! تجاوزتك..
اهترأت كل الخيوط التي كانت تربطني بك، ولم يَعُد يربطني بك سوى تلك الذكرى التي تُصر أنت على أن تبقيها حية بحضورك اللحوح، المتشبث، البائس.
أضعيفٌ أنت ووحيد إلى هذه الدرجة؟! أيائس لدرجةِ أن تتمسك بسرابِ علاقة ميتة وفُتات حُب؟!

أُدرك أنك قد مررت بعشرات العلاقات من بعدي، فلم لا تُفلت أطراف ذكراي لتعيش وأعيش وترتاح وأرتاح؟!

يُزعجني تعلقك بتلك الحكايةِ أحيانًا، يُشعرني أنني مُقيدة بها بشكل ما، بصورة ما، مشدودة بطاقة ما إلى حيثُ أنت، تعلقك بحكايتنا يؤثر عليَّ بطريقة ما حتى وإن لم أَكُن فعلًا طرفًا حاليًّا فيها..

ربما يسعدني تعلقك فيها في بعض الأحيان! يشعرني بأن مروري لم يَكُن كأي مرور، وبأنك لم تقدر على أن تنساني رغم الكثيرات اللاتي جئن من بعدي..

أتدري!

أنا لا أخافك، أو لأكون أكثر صدقًا، أنا لم أعد أخافك!

لم أعد تلك الفتاة البريئة الهشة التي كانت تخشاك. أعرف اليوم بأن أمثالك لا يقدرون حقيقة على إيذاء مثيلاتي..

ليتني أدركت هذا حينما كُنت معك. ليتني لم أسمح لك بأن تشوهني وتمزقني، وأن تعبث باستقراري وأماني ورضاي عن نفسي وعن صورتي وتصوري عن ذاتي..

ليتني قدرت على أن أواجهك قبل الرحيل، أن أهينك، وأشتمك، وأُحجمك لأنتهي منك وأمضي بدونِ أن يربطني بتلك الحكاية أي خيط أو كلمات مؤجلة..

رغم إدراكي التام بأنني قدرت على معاقبتك بالتجاهل والغياب، ورغم أنني قدرتُ على أن أعيشَ حياة أُخرى كاملة ومُختلفة بدونك وبعيداً عن حدود عالمك بما فيه من جغرافيا وزمن، واستطعت أن أعرف حبًّا جديداً وحقيقيًّا ظننتُ حينها بأنه يشبهني كثيراً ولا يُشبهك..
برغم أنني قد تمكنت من بناء العائلة الحلم التي لا طالما حلمت بها .

وتأسيس كيان حميم وخاص لم تقدر أنت على أن تؤسسه، إلا أنني احتجتُ حقًّا لتلك المواجهة معك، وأظن بأنني لا زلتُ أحتاجها حتى بعد مرور كل هذا الوقت من البعد والرحيل..

لا زلتُ أشعر بأن كمًّا كبيرًا من الكلمات لا يزال حيًّا، مُرًّا وعالقًا في حلقي منذُ أكثر من عشرةِ أعوام. لا زالت تلك الكلمات كالشوك في عنقي يا عزيز، تؤلمني وتؤذيني كثيرًا..

تقول مدربة الحياة التي تساعدني على فهم نفسي وعلى تجاوز بعض ما مررتُ به معك، بأن من أسباب كسل غدتي الدرقية هو أن شاكرا حلقي مكبوتة، وأنني ابتلعتُ الكثير مما كان يتوجب عليَّ قوله لك ولغيرك طوال سنوات حياتي،

بأنني المرأة التي لطالما ابتلعت الكلمات فأمتلأ حلقها بها وكسلت غدتها بفعل الكلمات المخنوقة بداخلها..

أنا أعرف جيداً بأن هُناك الكثير مما كان يفترض عليَّ قوله لك لكنني لم أقدر حينها على أن أواجهك. ربما لأنني خشيت أن أنهار، وربما خشيت أن أضعف وأن تفعل ما كنت تجيد فعله معي بالعادة فأعود لك ضعيفة وخاضعة من جديد.

أنت وحدك من ابتلعتُ بسببهِ مشاعري وأفكاري وخيباتي، ومضيتُ بدونِ أن أعبر عن قسوتها أو أن أتخلص منها، حبستها بين أضلعي وخزنتها في أعصابي، فباتت تظهر بين الحين والآخر على هيئةِ أمراض وأعراض جسدية لم يقدر طبيب على أن يعالجها أو حتى أن يشخصها بدقة..

تخيل!

رأيتك ليلة البارحة في منامي، وكأنني كُنت نائمة مع زوجي في صالةِ بيت جدتي القديم، لأجلك تنزل من سطح البيت مُتسللًا على عجالة،

أغمضت عيني بالحلم مُدعية بأنني لا زلت نائمة، فرأيتك تعبر من أمامنا بسرعة بكاملِ هندامك الأنيق، بصمت وخجل وعلى عجل كيلا نشعر بك أو أن توقظنا..

حُلم بلا معنى، أضغاث أحلام بلا شك! يشبه الكثير من الأحلام التي رأيتك فيها ولا زلت أراك فيها..
تعرِّج عليَّ في منامي بلا هدف ولا مغزى لتُذكِّرني بأنك لا زلت عالقًا في رفوف لا وعيي وسراديب ذكرياتي، تعبث بداخلها وتطل برأسك على وعيي بين الحين والآخر لتبرهن لي على وجودك بداخلي حتى الآن..
من الغريب حقًّا أنني كُنت قد نسيت تفاصيل بيت جدتي القديم في الواقع! مثلما ظننتُ بأنني قد نسيت الكثير من تفاصيلك، ولا أعرف لمَ وكيف انهمرتما عليَّ فجأة وكيف استعدت تفاصيلكما تلك الليلة معًا!..
اليوم أعرف الكثير عنك، أكثر مما كُنت أعرفه في الماضي.

تبدو اليوم أوضح بكثير مما كُنت عليه حينما كُنا معًا. بتّ تشبه نفسك في وسائل التواصل الاجتماعية أكثر بكثير مما كُنت تشبه نفسك فيها قبل عشر سنوات..

أهي ضريبة التقدم بالعُمر؟! فقدت القدرة على الادعاء أم أنك فقدت الرغبة في أن تدعي ما ليس فيك ولم تعد تكترث بأحد إلى هذه الدرجة؟!

لا أعرف! كُل ما أعرفه هو أنك تبدو تمامًا كما أنت.. وكأن أيدي الزمن قد أفلتتك فلم تُخلف فيك تغيرًا، ولم تغير بك شيء..

أطالع صورك الشخصية أحيانًا على برنامج الإنستغرام، أرقب مساحات البياض التي غزت شعرك وذقنك، وإلى تفاصيل التجاعيد التي ترتسم محيطة بعينيك على صدغيك.. فيبدو وكأن شيئًا آخر لم يتغير فيك!

لا زلت تبتسم تلك الابتسامة اللا مبالية دائمًا، وتلمع عيناك بتلك اللمعة التي تشبه الحُزن القاتم، ولا أحد قادر على فهم حقيقة ما وراء تلك النظرة ولا مغزى تلك الابتسامة سواي..

أتمنى أحيانًا لو كُنت قد تركتك منذ الخيبة الأولى، لو أنني كففتُ يدك عن قلبي فلم تقدر على أن تشوهه كما استطعت أن تفعل به..

وأتمنى في أحيان أُخرى أنني لم أتركك في ذلك التوقيت الذي تركتك فيه، لأرى كيف كُنت لتنهي علاقتنا بعد كُل تلك المأساة، ولأتخلص من ذلك الإحساس الخانق بالذنب الذي ينتابني بين الحين والآخر تجاه رحيلي عنك وهجري لك..

أنا لم أعتد على أن أخذل الآخرين ولا عن أن أتخلى عنهم. كُنت ولا زلت المرأة التي تؤمن بأبدية العلاقات، وبالحب الأوحد، المستعدة للتضحية، والمقدرة للتنازلات، والساعية إلى الاستمرار حتى آخر نفس في الحياة وآخر مشهد في العالم..

كُنت ولا زلت المرأة التي تُترك ولا تَترك مهما طالها من الأذى، لأسباب لم تعيها ولم تفهمها بعد وإن كانت تُدرك بأنها أسباب تتعلق بمشاعرها تجاه نفسها وأناها..

أُفكر دائمًا: كم كُنت لتؤذيني لو أنني بقيت معك أكثر مما بقيت؟!

كم مرة كُنت لتتخلى عني ولتخذلني؟! وكم كانت لتزداد علاقتنا سُمِّية واعتلالاً وبشاعة لو أننا قد بقينا معًا؟!

أُفكر في حياتي الحالية التي قد تبدو مثالية للكثيرِ من الناس، المثالية جداً بالنسبةِ لك على أقل تقدير يا عزيز! وأشعر أن بها شيئًا ناقصًا، أفراحًا خديجة، وشعورًا خفيًّا بعدم الكمال مهما حققت وأنجزت في هذه الحياة.

الحقيقة أنا لا أُفكر كثيرًا في ما أصبحتْ عليه مشاعرك تجاهي، بل أُفكر دائمًا في شكل مشاعري تجاهك الآن، بذلك الشعور الذي لا يُشبه الحُب ولا يخلو منه، وتلك المشاعر الغريبة المتناقضة والمتضادة والتي من الصعب أن توصف أو تُفهم أو تُحدد..

كيف لا أُحبك يا عزيز؟ وأنا أُدرك بأنك من سيهرع لإنقاذي لو احتجت لإنقاذ؟ وكيف لا أشعر بالثقة بك وأنا لا أشعر بالطمأنينةِ إلا معك رغم عُمر الخذلان وتاريخ الخيبات الذي يجمع بيننا؟!

كُنت دائمًا ما تطرأ على بالي في الفترات التي كان زوجي يتجاهلني فيها..

أذكرك في الأوقات التي أكون فيها لا مرئية معه، وفي الأوقات التي أشعر فيها بأنه لا يراني كما أود وأحتاج لأن يراني..

أتذكر كيف كنت لماحًا معي حينما يقسو عليَّ بالتجاهل وعدم الاكتراث. كيف كُنت دقيقًا ومُتمعنًا، لا تفلت أي تفصيل صغير أو تافه بي حتى لو تعمدت تجاهله..

أذكُر جيدًا كيف كنت تلحظ نبرات صوتي وتغيرها وما تحمله من معان خلفها ، وكيف كنت تفهم نظرات عيني، وتسمع ضجيج أفكاري حتى في أعمقِ لحظات الصمت التي لم تكُن طويلة بيننا..

أعرف بأن زوجي أحبني كثيرًا في البداية، بدا مُستعدًّا لأن يُضحي بأي شيء وكُل شيء ليحظى بي. قابلته في الوقت المناسب تمامًا، في الفترة التي كُنت أتوق فيها لأي يدٍ تنتشلني من قاع اليأس والخيبة التي أوقعتني فيها.
كنت بحاجة لأن أتمسك بأي أحد، بأي أمل، بأي ذراع، بأي حُب يُنسيني إياك أو يشعرني بأنني قادرة على أن أُحِب وأُحَب من جديد.

لم يَكُن حبًّا عاصفًا في بدايته كما كانت بداياتي معك.
كان خجولًا ووقورًا وبطيئًا وعلى استحياء، لكنه كان دافئًا وصبورًا ومُناسبًا لحالةِ الحدادِ العاطفي التي كُنت أعيشها على نفسي من بعدك.

امرأة متوجسة مثلي، لم تَكُن لتدفع نفسها للدخول في إعصار حُب بعدما رُميت من وسطِ آخر قبل فترة قصيرة من الزمن...

كُنت بحاجة لرجُل يتسلل إليَّ بهدوء وتروٍّ، لبدايات ناعمة ومُطمئنة وحذرة لا تُشبه بداياتي العاصفة معك.

كُنت أُعاني وقتها من أزمة قبول لنفسي، بالشعور بالضآلة والرفض وبعدمِ الاستحقاق.

شعرتُ بأنني لست بكافية لا لغيري ولا لنفسي أبداً في تلك الفترة من العُمر ومن التجربة، لذا احتجتُ لرجُل يشعرني بالقبول لنفسي، لرجل يشعرني بقيمتي، وبأنني محبوبة بالقدر الذي يُرضي أنوثتي وبالقدر الذي أحتاجه وأستحقه..

رجل يملأ ذلك الفراغ الكبير الذي خلفه مرورك ومن ثم غيابك، رجل يحبني بعيوبي ومزاياي لأتمكن من أن أُحَب وأقبل نفسي من جديد بعدما كرهتها كثيراً وطويلاً معك وبسببك..

أنا لست بساذجة لأظن بأنني حُب زوجي الأول يا عزيز، كُنت أعرف بأنه زير نساء ومُتعدد العلاقات قبل أن يعرفني، لكنه استطاع أن يقنعني بأنني لطالما كُنت المرأة الأخيرة والمنشودة التي طال انتظارها..

كان مفتونًا ببراءتي بلا شك، كما كان من الواضح بأن كُل تجاربه السابقة مُختلفة تمامًا عني، وبأنني لا أُشبه كل اللاتي جئن من قبلي.

سابقاتي كُن أكثر جرأة وأكثر تطلبًا، وأكثر انفتاحًا في العلاقات مما كُنت ولا زلت أنا عليه، وقد كان هذا ما يميزني قبل زواجه مني، وما أصبح يُعيبني بعدما تزوجنا..

يختلفُ الزواج "غالبًا" عن الحُب يا عزيز، حتى آلامه وخيباته وصدماته يختلف وقعها على أطراف العلاقة..

في الزواج الألم يتضاعف، يُمزق، يُغرق ويخنق، ربما لأن الرجال حسب فطرتهم وأيضًا بسبب موروثاتهم يثقون بأن مساحات الغفران فيه ستكون واسعة ومُمتدة حتى اللا نهاية، وبأن النساء سيتنازلن وسيضحين مقابل أن تستمر تلك العلاقة، خاصة وإن كانت تتضمن أطرافًا أُخرى عالقة، بريئة وصغيرة، لا ذنب لها ولا ناقة ولا جمل في حكاية الخذلان.

في الزواج وفي مُجتمعاتنا على وجهِ الخصوص، النساء غالبًا ما يَكُنَّ مضمونات البقاء، لذا يُهمَّشن ويُجرحن، ويُخذلن ويُخَن، ويتلاعب بهن باستخفاف كُكرات الطاولة..

أتساءل أحيانًا: إن لم أجد الوفاء والإخلاص والالتزام بمن جمعني به أغلظ وأطهر العقود وأكثرها قداسة، فكيف سأجده في شراكة أُخرى ومع شريك آخر مهما اختلفت أنواع الشراكات؟!

أُفكر دائمًا يا عزيز لمَ وقعت فيك وفيه؟! ما هي رسالة الحياة لي في أن أقع برجلين عابثين؟! ما علّتي لأُحب رجُلًا مثله ورجُلًا مثلك؟! أنا الكاملة جدًّا، المثالية كثيرًا والاستثنائية بكُل المقاييس..

أيُعقل أن جميع الرجال بهذه الصورة؟! وأنني من تبحث عن رجُل خيالي لا يُشبه رجال الواقع؟! أم أن هُناك رسالة لي من تكرار هاتين التجربتين المرتين والقاسيتين على امرأة مثلي؟!

صدقني، أحببتُك وأحببته أكثر مما أحببت نفسي، فضلتكما عليّ، لذا أُفكر أحيانًا في أن هذه هي الرسالة! ألّا أحب أحدًا أكثر مما أُحب نفسي.. أنا أولًا، ومن بعدي يأتي كُل شيء وكُل أحد..

لو تدري كم أحتاجُ فعلًا لأن أُصدق أن الرجال يتشابهون وأن جميعهم على هذه الشاكلة..

تمنحني هذه الفكرة شيئًا من العزاء، تربت على قلبي المكلوم الموجوع، الثقيل جدًّا جدًّا بفعلِ الخيانة..

صدقني لم يَكُن من السهل عليَّ هجرك ولم يَكُن سهلًا عليَّ تخطيك..

الحقيقة أنني لم أتخطَّك تمامًا. كيف تظن بأنني قادرة على أن أتخطاك وأنت لا زلت تسكن جزءًا خفيًّا بي ولم تُغادر عتبات أعماقي حتى الآن؟!

مرت عشر سنوات ولا زلت أقاومك، أقاوم غيابك الحاضر وحضور غيابك الدائم..

لا زلت أشعر بك موشومًا في قلبي، مغروسًا في نياطه.. أشعر أنني ممتلئة بك وخاوية منك في الوقتِ نفسه..

أتأمل طفلي أحيانًا وأُفكر فيما لو كانا طفليك وفيما لو كُنت امرأتك؟! وفيما لو أنني بقيت!
ما الذي كان ليتغير؟ وما الذي كُنت سأكون عليه الآن لو أنني بقيت ولم أرحل؟! أكُنتَ ستتغير؟! أم كُنت ستستمر في تنويع أساليبك في خذلاني؟!

أشعر بتخاطرك معي أحيانًا! قد يبدو التخاطر مُجرد تهيؤات، أوهام، أحلام يقظة، حاجات دفينة ورغبات لا واعية، لكنني أُدرك تمامًا بأن شعوري بك حينها حقيقي وواقعي وصادق إلى أبعدِ حد..

أشعر بك وكأنني معك، أعرف بأنك تُفكر بي حينها، وبأنني قد مررت على ذهنك وخاطرك.. أشعر بتلك اللفحة الساخنة، وبانقباض قلبي، وتلك الرعشة في جسدي التي لطالما شعرت بها في كُل مرة كُنت أقابلك فيها بعد طول غياب..

أشعر بك بعيداً جداً وقريباً جداً. غائباً جداً وحاضراً جداً.. ولا قدرة لأحد ولا لشيء في أن يقنعني بأنني تهيأت وأتهيأ كُل هذه المشاعر..

لن أكذب عليك يا عزيز. أحببت زوجي كثيراً. تعلقتُ به حتى آخري كعادتي عندما أُحب. شعرتُ معه بالسعادةِ في الكثيرِ من الأوقات، ولم أُفكر بك كثيراً إلا بعدما تغير..

يُخيل إلي بأن هذا الخواء هو قدري. قدري أن أُحِب ببراءة، وأنا أُحَب بنرجسية.. وأن أحزن كثيراً وطويلاً بفعل الحُب وخيانة الرجال.. ليت الإنسان يملك الخيار لأن يعود إلى الوراء، أن يُغير شيئاً في ماضيهِ وتاريخه، أن يطمس يومًا، أو يمحو حادثة، أو يصحح نهاية.. ليتني أعود إلى اليوم الذي عرفتك فيه، فأتجاوزه بلا أحداث، أقضيه في فراشي بدونِ أن ألقاك في ذلك المقهى الصغير.. لو أنني لم أقابلك يومها، لما أحببتُك ولما أحببته.. ولما عشتُ معك ومعه كُل هذا الألم وهذا الخذلان،

لتغيرت تفاصيل كُل هذه الحكاية ولما باتت روحي هذه الروح المكتظة بالغائبين..

لا يمضي كل وقت يا عزيز ولا يمر كُل ألم.. بعض الأوقات تبقى عالقة في سلم الوقت، وبعض الجروح تظل ملتهبة حتى نموت بسببها أو حتى نموت بلا سبب..

أتعرف؟!

في السابق حينما كُنت أحاول أن أفسر وأحلل فعل الخيانة، كان يلح في ذهني سؤال "لماذا"؟! لكنني اليوم أحاول أن أفهم وأن أحلل أسباب دهشتي المستمرة في كُل مرة أتعرض فيها لها..

لمَ تصدمني دائمًا رغم شعوري بها وشبه اليقين بحدوثها؟

لمَ تصدمنا الخيانة حتى وإن توقعناها؟! تزلزلنا وتخضنا وتفاجئنا رغم التوقعات، تبعثر الأمان بداخلنا، وتدفعنا في متاهة مُعقدة كالعراة مُعصوبي الأعين مسلوبي الإرادة..

الخيانة فعل لئيم، لئيم جداً يا عزيز.. فعل وضيع لا يُبرر. فعل يُغيرنا إلى الأبد..

نشعر في كُل مرة نتعرض فيها له وكأنها المرة الأولى بذات الوقع المفاجئ، وبقدر الألم الأول الذي يصعب نسيانه، فتظل في دواخل أرواحنا كالوشمِ والوسم، أبدية الأثر، لا تُزال ولا تُمحى ولا تتغير..

وشمتَ خيانتك على صدري فلم يقدر شيئاً بعدها على أن يُعيدك إلى مكانتك القديمة في قلبي، فكيف ظن سلطان بأن شيئاً سيُعيده على ما كان عليه؟!

غريبةٌ هي الرياض وغريبٌ هذا الوباء!

أراقب أعين الناس في السيارات من حولي والتي تلمع بالحياةِ رغم قلق الجائحة. أتخيل ابتساماتهم من تحت الكمامات وأُفكر كم تبدو الرياض وساكنوها أقوياء مُطمئنين حتى بعدما حلت الجائحة وتداعى العالم من حولنا..

لكم بودي أن أسمع منك كيف كانت عودتك إلى الرياض في ظل هذه الظروف! من دفعك لتُفكر فيها؟ كيف تجرأت واتخذت قرار العودة؟ وكيف وجدت الطريق إليها من بعدِ هذا العُمر الطويل من الاغتراب الاختياري؟!

لا شك عندي من أنك قد عُدت إليها مُضطرًّا! أعرف بأن الجائحة قد أجبرتك على أن تعود. استطاع الخوف من الموتِ وحيداً أن يغلبك هذه المرة، فساقتك قدماك إلى الأرض التي بدأت منها لتنتهي فيها..

حينما يقترب الخوف من الموت نتوق جميعًا لأحضانِ أمهاتنا، ولأن نُدفن في تراب أوطاننا، التراب الذي عرفناه وألفناه وغادرناه لنعود إليه في نهاية المطاف مُحتاجين ومُنكسرين وخانعين.. فمهما اخترنا الغياب، ومهما فضلنا الرحيل، فنحن نختار قطعًا عند النهايات أن ننتهي في أوطاننا، أن نتماهى في ترابها ونتلاشى فيه.. فنعود من حيث جئنا، ونستكين أمام ما قاومناه طويلًا، تكبرًا وتعاليًا عليه..

أنا لم أعد للرياض يومًا إلا مشتاقة إليها.

تعرف أنني نقيضك التام في مشاعري تجاهها. عُدتُ إلى رياضي قبلك بثلاثِ سنوات ما إن حصلت على الدكتوراة.. حملت حقائبي وصغاري وتأبطت ذراع زوجي وهرعتُ إلى أحضانها لتُباركنا وترعانا من بعد الله تعالى وإلى الأبد..

تُدرك أنت كم كُنت أحلم في كُل ليلة من ليالي الغربة بالعودة إليها حتى في الوقت الذي كُنتُ فيه معك!

دائمًا ما كانت هي المنشودة، دائمًا ما كانت هي المنتهى، هي الرياض الصادقة، الدافئة، المضيئة، والأم الرؤوم.. التي أؤمن بأنها ستحضنني دائمًا وتحميني دومًا. المدينة التي لم تخذلني يومًا، وأعرف أنها لن تخذلني ولن تخذل ولديّ أبدًا مهما كانت الظروف ومهما تغيرت الأحوال..

هي التي احتضنتني واحتضنتك واحتضنت كل من خُلق فيها في نهاية المطاف. أنا التي غبت عنها رغمًا عني، وأنت الذي عُدت إليها رغمًا عنك، بحسن وسوء خُلقنا وتصرفاتنا وسلوكنا ونوايانا، بدونِ أن تُحاسبنا عليها أو تفرق في معاملتها لأحد منا، أو تشكك في مساعينا. كل ما كان يعنيها في الأمر هو أننا قد عدنا إليها..

يقول ألبير كامو أن الحب الذي تتبادله مع مدينة هو على الأغلب حب سري. لكن حُبي للرياض علني وفخور وصادح، ولا أفهم كيف لا يستطيع أحد ألا يحبها. لا أفهم كيف قدرت أنت على ألا تُحبها لعمر طويل، مهما كان سبب وشكل ومنشأ ومرجع عُقدك فيها!

أُفكر مؤخرًا، كيف تعيش الآن في الرياض؟! وفي أي جزء تعيش فيها؟! أيُعقل أنك لا تزال في بيت والدك؟! وكيف تكيفت مع التغيرات التي كان من المستحيل تخيلها وتوقعها؟!

أنت الذي قطعت مُعظم الخيوط التي تربطك في الرياض كيلا تسوقك أقدراك إليها يومًا وكأنك قادر على أن تُلاعب وتُخادع الأقدار..

كيف وجدت الرياض يا عزيز بعد طول جحود؟!

وكيف استقبلت هي ابنها الشريد المتكبر والضال؟!
أستطيع أن أتخيل كيف استقبلتك، لكنني لا أستطيع أن أتخيل كيف عشت الحجر والعزلة فيها! هي المدينة الشديدة الحذر، المتحكمة بأفعالها جدًّا،
وأنت الرجل الضوضائي جدًّا، العبثي بحدة، الثائر والمتمرد، والمفرط الطاقة..
غريبة واستثنائية هي هذه الجائحة! كيف غيرت من ملامح الحياة فسلبت أرواحًا وحبست أرواحًا، وقادت أرواحًا تائهة إلى أراضيها الأصلية من بعدِ ما ضلوا طريقهم إليها..
من كان ليصدق أن تكون عودتك بهذا الشكل؟! بهذا العُمر؟! في هذا الوقت؟! وبهذه الظروف؟! لكنك عُدتَ أخيرًا، العودة التي لم يتوقع أحد منا أن تكون بهذه الظروف ولا في هذا العُمر، لا أنا ولا أنت ولا أظن بأن أحدًا ممن يعرفك توقعها..

لو تدري لكم خشيت كثيرًا أن تكمل حياتك بعيداً عن الوطن، حيثُ أنت، وأن يختطفك الموت على حين غرة هُناك، فتعود جسداً بلا روح مثلما كُنت تجيء إلى الرياض في كُل مرة خالي الروح , ممتلئ الجسد ..

لكن الجائحة فاجأت العالم أجمع، باغتت البشرية، باغتتني وباغتتك وأعادتك!

الحقيقة أن عودتك أخافتني كثيرًا.. شعرتُ بأنك بتَّ قريبًا فجأة، أقرب مما تخيلت ومما أردت..
أصبحتُ أخاف أن أصادفك في أي مكان، أن أصطدم بك في أي مناسبة، أن يجمعنا مقهى أو أن نلتقي في متجر ما أو مكتبة ما بمحض الصدفة أو مكر العمد..

كيف نعيش أنا وأنت في المدينة نفسها بدون أن نخشى اللقاء!

بدونِ أن نتوقع مفاجآت القدر التي لطالما لاعبتنا وباغتنا..

فكرتُ كثيرًا فيما لو التقيتك! هل سأتجاهلك وكأنك لم تعبر على قلبي يومًا؟! أم سأحاول تهميش ما كُنته بالنسبة لي فأُحيّيك ببرود تحية زملاء الغربة القدامى؟! أم سأرتجل؟!

أم ستخذلني مشاعري فأدمع وأبكي وأنهار كعادتي حينما يخذلني التماسك وتغلبني العاطفة؟!

بالمناسبة! حدثت سلطان عنك كثيرًا.. حكيت له عن تفاصيل علاقتنا ومنذ بداية تعارفنا..

لم أَكُن أرغب في أن أُقيم وأُشيد علاقة على رفات علاقة. لم أرغب بأن أفتح صفحة من دونِ أن أطوي صفحة الحكاية التي سبقتها..

أردتُ أن أكون صادقة حقيقية، واضحة النوايا في بدايتي الجديدة ليُبارك الله في كل ما قد تحمله لي في قادمِ أيامها..

أردتُ أن أرثيك وأُؤبّنُك علنًا لأنتهي منك تمامًا وأبتدئ بداية مُختلفة.. بدونِ أن أخفيك وأخبئك أو أخجل منك فأُنكرك..

أمن الجنوني أن أحدث رجُلًا قد يجمعني به المستقبل عن تفاصيل حب قديم مضى؟!

كُنت أعرف أنني أُجازف، لكنني لم أُبالغ في التفكير في هذا، لم أكُن حذرة في التفاصيل ولم يهمني حكمه عليَّ ولا إن كانت ستبعده حكايتنا عني..

كُل ما فكرت فيه هو أن أكون نفسي، بوضوحي وشفافيتي وحقيقتي..
وألا أكون إلا مع من يقبلني بتفاصيلي وعيوبي وأخطائي بما فيها تجربتي الغرة الوحيدة الساذجة..

والحقيقة أنه فاجأني بتفهمه وتقبله.. فلم يسألني عن أكثر مما تطوعت وحكيته له بنفسي، ولم يتطرق إليك من بعدها وكأنني لم أحدثه عنك أبدًا، وكأنك لم توجد في حياتي على الإطلاق!

كان واثقًا من نفسه ومن تأثيره عليَّ ففرض وجوده عليَّ كرجلِي الأول، وعاملني خلال حكايتنا وكأنها حكايتي وحكايته البِكر..

صدقني لم أتمسك بذكراك أبدًا بعدما عرفته. حاولت أن أطويك، أن أنساك، أن أمحو تفاصيلك من ذاكرتي وفاءً وإخلاصًا له.. لكنك أصبحت لحوحًا في حضورك بداخلي حينما أصبح شريرًا ونرجسيًّا معي، فغاب عني وهو معي وحضرت أنت بداخلي رُغم غيابك.. فأصبحت أتخبط بين ذكرى موجعة حاضرة، وحاضر قاسٍ غائب..

أمن الغريب أن يُجرَّني إحساس الخذلان معه إلى إحساسي به معك؟!

لا أعرف كيف ولماذا ارتددتُ إلى تلك النقطة البعيدة خلفي! لمَ عاودني ذلك الوجع القديم وكأنني أعيشه مرة أُخرى بنفس القدر وذات الوقع؟!
كيف بقيتَ حيًّا حاضرًا نازفًا بين مشاعري وأفكاري طوال هذه السنوات وحتى الآن بدونِ أن أدرك ذلك وبدونِ أن ألمس حضورك بداخلي؟!

كيف تركتك مختبئًا بداخلي طوال هذا العُمر بدونِ أن أشعر بك نابضًا بين أضلعي؟!

صدقني، ظننتُ أنني قد تخطيتك، شُفيت منك، فلمَ التهبت جروحي بسببك من جديد ما إن خذلني زوجي ؟!

لمَ شعرتُ بألمي معك أثناء ألمي معه؟! ولمَ أصبحت ألومك على حزني بسببه؟! لمَ أنت وليس هو؟! لمَ لا زلت الجرح الأعمق في حياتي؟! الخيبة غير المنسية، الحُزن الحي، والغضب الصارخ الباقي؟!

لم أتخطَّك! هذا كُل ما في الأمر! لم أُشفَ مما كان بيننا ولم أتخطَّه.. رغم أنني لم أعِ بقاءه بي طوال السنوات العشر الماضية..

كان الألم شديداً فسعيت لأن أطببه بحُب جديد. اعتقدت أنني مُستعدة لبداية جديدة، ورجُل عِوَض، لكنك كُنت تظهر كشبح خفي بين الحين والحين، تطل على لا وعيي في بعض لحظات الفرح مراقبًا، وتطيل البقاء دائمًا في أوقات حُزني..

أتعرف!

أنا لا أذكر في حُزني إلا أنت، أتخيلك جالسًا على المقعدِ بجوار سريري، تنظر إليَّ وأنا أبكي في صمت مُتعاطف. تغفى عيني وأنتَ تراقبني حتى أستيقظ، فتطمئن وأطمئن، وتُغادر بدونِ أن تنبس بكلمة أو حرف..

لطالما اعتقدت بأن الأمومة ستُنسيني إياك، فلا حُب يقارن بحُب الأم لأطفالها، ولا شيء يضاهي حُبي لولديَّ حتى حُبي القديم الكبير لك، لكن حبهما لم يمحُ حُبي لك أبداً ولم يُنسني إياه..

لا زلتَ في ركُن قصي بداخل قلبي، ركُن بعيد، سري، لا أجرؤ على أن أشاركه أو أن أحدث عنه أي أحد.

حتى هيفاء، صديقة الغربة التي شهدت معظم فصول حكايتنا معنا، لا تزال تتطرق إليك بين الحين والآخر بسخرية، تذكرني ببعض المواقف القديمة ضاحكة، كذكرى حكاية مراهقة قديمة وساذجة بدونِ أن تتخيل ولو للحظة واحدة كم لا زالت ذكراك توجعني!

نعرف بأننا تخطينا علاقاتنا عندما نضحك حينما نتذكرها، نسترجع تفاصيلها بسخرية أو باستلطاف، لكن العلاقات التي تظل حية بداخلنا هي التي يوجعنا أو يزعجنا دائمًا اجترار ذكرياتها واسترجاعها وكأننا نعيش الوجع مرة أُخرى..

لا أخفيك، أنا حزينة جداً هذه الأيام.. لم أتصور أن أعيش حُزنًا يُشبه الحزن الذي عشته عندما تركتك خلفي.. لكنني حزينة فعلًا مثلما كُنت حزينة حينما اخترت أن أتركك وأرحل..

برغم ذلك القدر العظيم من الأسى الذي شعرت به عندما غادرتك ورحيلي إلى نيويورك بدونِ أن أُخبرك، إلا أنني كُنت أتوقع وأنتظر منك أن تُعيدني إليك!

كُنت أستيقظ في كُل ليلة لأتفقد هاتفي، وأتأكد من بريدي الإلكتروني وحساباتي على وسائل التواصل الاجتماعي بانتظار أي رسالة منك، أو أن تعاود طلب متابعتي بعدما ألغينا مُتابعة بعضنا عليها، لكنك لم تتصل ولم تُرسل ولم تعاود المتابعة. طال انتظاري وطال غيابك ولم يَكُن أمامي إلا أن أعتاد على التنفس والعيش في عالم لم تعد تشاركني فيه الهواء نفسه..

لا زلتُ أُفكر، لمَ لم تُبادر حينها؟! لمَ لم تتمسك بي؟! لمَ تركتني أرحل بهذه البساطة التي لم تَكُن تليق بتعقيدِ حكايتنا؟!

عرفتك منذ اللحظة الأولى عندما تابعتني بمعرفك الجديد على حساباتي في وسائل التواصل، لم أكُن بحاجة للكثير من الذكاء، لأُميز اسم المقهى الذي كُنا نلتقي فيه وتاريخ ميلادك، عرفت على الفور أنه يعود إليك، وقد كُنت على يقين من أنك قد تعمدت أن تلفت نظري إليه..

تابعتني بصمت، لذا بادلتك إياه، فظللنا نراقب بعضنا طوال عشر سنوات بدونِ أن نتواصل بشكل مباشر..

أتدري لمَ أعلنت خطبتي على تويتر بعد عام من فراقنا؟!
لأنني أردتُك أن تتصرف باختصار! أن تقاوم! أن تحاول بأي صورة وأي طريقة أن تُثنيني عن هذا، لكنك لم تفعل، بل أبديت إعجابك بتغريدتي مُتحديًا، ومبديًا من خلالها لا مُبالاتك الصريحة..

في كُل مرة كُنت أُعد فيها تنازليًا على تويتر ليوم زواجي، كان يصلني إعجابك على تغريدتي لتوصل إلي مُجددًا بأنك تعرف كم تبقّى على ليلة عرسي وبأنك لا تكترث!

عاقبتني بالمباركة، فجزمت على الزواج والرحيل والنسيان..

تزوجت ورحلت يا عزيز، لكنني لم أُنسَ!

أستمع إلى مقطوعة Autumn breeze في طريقي إلى العمل وأتذكر ذلك الحُزن الراكد في عينيك..

لا أعرف لمَ تُذكرني هذه المقطوعة بك دائمًا!

رغم أنها لم تجمعنا يومًا لكن شيئًا ما فيها يذكرني بك.. أنت الحزين جدًّا رغم فرطِ نشاطك وسخريتك الحادة،وتوقك الضخم للمُتع الآنية..
يُخيل لي أحيانًا أني لم أشاهد حُزنًا حالكًا في عيني أحد كما شاهدته في عينيك..

حُزنك قاتم، متعالٍ، مُكابر، سري وغارق في الصمت.. حزنك مؤثر لدرجة لا قدرة لي على وصفها..
يُحزنني أنني أُدرك بأنك لن تصبح سعيداً أبداً.. بأن نرجسيتك ستمنعك من أن تكون سعيداً مع أي امرأة قد تُحبك أو تحبها..

ستتنقل طوال حياتك من امرأة لامرأة لامرأة بدونِ أن تجد السعادة التي تنشدها ولا الحُب الذي لطالما فتشتت طويلًا عنه..

ستهيم في بدايات علاقاتك كعادتك، وستبدو ساحرًا ومُثيرًا في اهتمامك وتفاصيلك وتجليك، لكن الحب سيخبو بعدما تتعلق بك الأطراف الأخرى ككل العلاقات التي عشتها من قبلي ومن بعدي..

ستعذب كل امرأة تُحبك وتُحبها، ستُعلقها، ستكذب عليها وتخونها وتلومها على تصرفاتك معها وستتركها بلا سبب واقعي وحقيقي لتعاود الكرة مع امرأة أُخرى وحُب جديد ورحلة جديدة بنفس السيناريو وذات التفاصيل، لتصل معها وبها إلى النهاية الفاشلة الحزينة عينها..

يخيفني أنك كبرت، كبرت كثيرًا! وأنك لا تزال وحيداً حتى الآن،

بلا أسرة ولا حتى عائلة ترتبط فيها، يحزنني أنك تائه في رحلة لا مُنتهية من البحث عن حُب غير موجود، حُب لم ولن يوجد بالصورة التي تبحث عنها، لأنك ببساطة لم ولن تحب نفسك مهما حاولت وادعيت، ومهما كُنت أنانيًّا ونرجسيًّا مع الآخرين..

صدقني، بقدرِ ما أوجعتني خياناتك المتكررة، وبقدرِ ترددك ومزاجيتك وتلاعبك في علاقتنا القديمة، ورغم حُبي الكبير المستمر لك حتى الآن، إلا أنني أتمنى حقًّا أن تجد السلام مع أي امرأة تسعد معها وتسعد معك..

أتمنى أن تصبح في حياتك أسرة صغيرة، أطفال، عائلة، وطن، جذور، فروع، أي شيء تمتد منه أو يمتد منك.. أي صورة من صور الانتماء! لكم كنت ستتغير ولكم كانت لتتغير تفاصيل حياتك!

أتدري! قرأت لي مرة إحدى الفلكيات خريطتي الفلكية..

حدثتني عنكما بدقة، عنك وعنه! أنت الذي كُنت تُشكل بالنسبة لي الماضي وهو الذي كان يمثل حاضري ومستقبلي حينذاك..

قالت لي أنني سأحب في حياتي رجلين، وأن علاقتي بهما ستكون مليئة بالدروس والألم والوجع والتعلق والهروب والانفصالات والأطراف الأخرى بكافةِ أنواعها، وبأن حُبي الأول سيستمر فيها طوال الحياة..

لم أرغب بتصديق تلك القارئة تلك الليلة، خشيتُ أن ينهار زواجي الذي كُنت متمسكة به وقتذاك حتى آخري، كما خشيتُ من فكرةِ أن أعود للمعمعة القديمة، للألم الأكبر، للمعاناة المستمرة والممتدة معك..

خشيتُ أن أتورط بك ومعك من جديد، أنا التي لم يَعُد يناسبني التورط في أي شيء بعدما أثقلت كاهلي أمانة الأمومة التي لا قدرة لي إلا على الإخلاصِ لها تمامًا وكُليًّا..

حاولت أن أنفض الفكرة من رأسي، ألا أصدقها ولا أتذكرها ولا أفكر فيها.. لكن كلمات الفلكية عادت لترن في أذني بعدما وصلت إلى طريق لم أَكُن أتوقع الوصول إليه مع زوجي..

هل تُعيدنا الحياة معًا بعد هذا العُمر الطويل؟! وكيف سنعود؟! عازب نرجسي عابث، وامرأة مُطلقة وأمٌّ لطفلين من رجُل آخر؟!

أي قدر هذا الذي سيجمعنا؟! وكيف سيكون شكل الحياة التي سأكون فيها معك ومعهما؟!

أُفكر أحيانًا، هل كُنت ستؤمن بما قالته لي لو أخبرتك عنه؟! هل كُنت ستتمسك به كأمل جديد حتى لو كان بعيدًا ومُستحيلًا وزائفًا؟!

أعرف بأنك لطالما كرهت هذه الصفة بي!

كُنت أحدثك عن الفلك والأبراج وطاقة الحروف والتواريخ والأسماء، فتسخر من امرأة تتعاطى العلم ورغم ذلك تؤمن بالغيبيات والماورائيات غير الملموسة..

كُنت تؤمن بأن من يتمسكون بهذه العلوم ليسوا إلا مجموعة من البائسين اليائسين.. المحتاجين لأي بصيص يطمئنهم على المستقبل الذي يخافونه.. والحق أنني بائسة ويائسة في مُعظم الأوقات وإن لم يبدُ عليَّ ذلك.. يُحبطني كثيرًا أنني محظوظة في كُل شيء ما عدا في الحُب الذي دائمًا ما كانت اختباراتي فيه صعبة وقاسية..

يُخيل لي أحيانًا أن القدر يكرر اختباراته العاطفية لي لأن للعاطفة الأولوية الكبرى في حياتي دائمًا، ولأن الحُب دائمًا ما كان هو الفردوس المنشود والحاجة الكبرى بالنسبة لي..

يُقال بأن الإنسان يُعذب بأكثر ما يُحبه ويتعلق به..
ألهذا السبب دائمًا ما كانت دروسي مع الرجال الذين أحببتهم؟ ألهذا كان اختباري الأصعب معكما؟! معك ومعه؟!
صدقني، لا أدري أي خيبة كانت الأكبر! تلك التي عشتها معك أو تلك التي أنهت زواجي؟!
لا شك عندي من أنك كُنت فجيعتي الأولى، لكني لا أعرف إن كُنتَ فعليًّا فجيعتي الأكبر!

حينما خسرتك خسرت حُبي الأول، علاقتي الأولى، وجزءًا كبيرًا من نفسي، أما معه فقد خسرتُ أمانًا ومُستقبلًا وأُسرة وأجزاء كثيرة وكبيرة جدًّا من نفسي..

ربما كانت خسارتك رغم ضخامتها أخف ألما لأني قد تدرجت معك في الفقد..

فقدتك بعد سلسلة من الخيبات. كُنت أفقد شيئًا منك في كُل مرة، خيبة تلو الخيبة.. صدمة بعد الصدمة، حُزن خلف الحُزن..

لكن الأمر معه كان مُختلفًا. شعرتُ بأنه انتُزع مني انتزاعًا فجأة. شعرتُ بأن جزءًا من روحي قد اجتُث في لحظة واحدة..

لا أعرف كيف استطاع أن يفعل بي كُل هذا! كيف تمكن من أن يؤلمني إلى هذا الدرجة بعد كُل ذلك التاريخ الذي عشناه في الحُبِ معًا!

أخبرني زوجي عن علاقته التي كانت تسبق علاقتنا. كانت حُبه العاصف المختلف، والتي كان يسعى لأن تنتهي بالزواج. لم أسأله عن تاريخ تلك العلاقة.

ظننت أنها انتهت من قبل عام على الأقل قبل بدايةِ تعارفنا، لكنني اكتشفت بعدما تزوجنا أننا تعارفنا بعد نهاية تلك العلاقة بشهرين فقط..

باختصار، بنى أُسسَنا على حُطام وأنقاض علاقة أُخرى.. الخطأ الذي لطالما وقعت فيه أنت في علاقاتك المهترئة المتواصلة، بما فيها العلاقة التي جمعتنا..

أعرف أنه من الغريب أن تُصدق ذلك! لكن الانفكاك عن سلطان والتخلي عنه كان أصعب بكثير من تركي لك وهجري إياك..

تخيل! كل ذلك الألم الذي واجهته عندما تركتك، سوداوية الوحشة، والخوف من الفقد، ونوبات الشوق الحادة، والألم الذي كُنت أشعر به قاتلًا حينما تقبض الذكرى على قلبي بقوة، كُل ذلك، كُل ذلك! عشته مُجددًا حينما قررت أن أترك سلطان لكن بقدر مضاعف..

كُنت أرى سلطان في ملامح طفليّ، أسمع صوته في ضحكاتهما، أرى عسلية عينيه في أعينهما، وأسمع اسمه يتردد خلف اسميهما في كُل يوم آخذهما فيه من المدرسة..

كيف أنسى من يحمل طفلاي اسمه ودمه وطباعه وجيناته؟!

كيف لي أن أتجاوز من ترتسم ملامحه صغيرة على وجهيهما البريئة الجميلة الطاهرة الطيبة؟! كيف أتخطاه وطفلاي يمتلان منه ويتفرع هو من خلالهما؟!

كيف أنساه وقد أصبحتُ منه وأصبح مني ونتج عن امتزاجنا روحان، إنسانان، وحياتان وعالمان يحملان بعضي وبعضه؟! شيء مني ومنه..

أحببتُكَ كثيرًا، لكنني عشتُه تمامًا وكُليًّا. كانت لي معه حياة كاملة،

تشاركنا كُل شيء، البيت والمال والأحلام والصباحات والسرير. الأطفال، الملابس، الطعام، الأجساد.. كل شيء، كل شيء! فكيف سأنساه؟!

لا أقول بأن حُبي له كان أكبر من حبي لك، لكن حبي له كان واقعيًّا، حقيقيًّا، عميقًا.. بينما حُبي لك كان يُشبه الأحلام الوردية وحكايات الروايات..

حبي لك كان أشبه ما يكون بالخيال الرقيق، بالحُب الخالد وبالذكرى اللذيذة رغم مرارتها. الحُب الذي احتفظت بالشغف تجاهه لكونها الحكاية البعيدة والرغبة المستحيلة التي ظلت معلقة ولم تتحقق..

أذكرُ الليلة التي سقط فيها قناع سلطان، الليلة التي تعرى فيه أمامي من أكاذيبه وتلاعبه.

أذكر الصمت الذي انتابني، والخدر البارد الذي انتشر في جسدي وتسلل إلى لساني، فأخذت أتأمل ملامحه التي بدت لي غريبة لأولِ مرة مُخدرة الأطراف ومعقودة اللسان..

أُفكر دائمًا كيف أصبح سلطان رجُلًا غريبًا عني في لحظات؟! كيف انتقل من عالمي إلى عالم بعيد آخر لا تفضي طرقي إليه، ولا يربطه بطرقي أي طريق أو معبر..
أُفكر كيف انهارت حكايتنا فجأة؟ كيف تغيرت خريطة زواجنا؟
كيف تشكلت حدودها من جديد؟ وكيف تقلصت فصول حكايتنا في ليلة واحدة واختزلت في الماضي بلا فصول مستقبلية ولا أجزاء لاحقة؟!

كيف استطاع أن يُبعثر أمانيّ ويُشتت حاضري في لحظة حقيقة صادمة وغير متوقعة؟!

كيف جرؤ على أن يعبث في تفاصيل قصتنا السعيدة وأن يدنس علاقتنا المقدسة؟! وكيف ولماذا لم أتوقع منه كُل ذلك؟!

أفكر دائمًا في العهد الذي جمع بيننا، في ذلك الميثاق الغليظ الذي لا يفترض أن يقدر الإنسان على أن ينتهكه باستهتاره وعبثه وضعفه ودناءته مهما انعدمت وساءت أخلاقه!

أُفكر كثيرًا، كيف قدر على أن يتلاعب بي أنا؟! أنا!

لطالما ظننتُ بأن سلطان فوق الشبهات رغم كُل الإشارات التي كانت تصلني، ليس غباءً مني بل من حُسن ظني به! أنا الحسنة الظن دائمًا.. والذي كان يُدرك بطبيعته المتلاعبة براءة نظرتها له وحُسن ظنونها فيه..

كُنت أتدرع دائمًا بقيمهِ ومبادئه، بالإنسان الذي يُفترض أن يكونه وبالعائلة الجميلة التي بنيناها، والحكاية الرقيقة الناعمة الصادقة التي جمعتنا.. بالخلق الإنساني الذي أفترض دائمًا أن يتشبث به جميع الأسوياء من البشر..

الحقيقة أنا لا أعرف إن كانت حكايتنا بتلك الصورة التي كُنت أشعر وأظن فيها! يُخيل لي أحيانًا بأنني أعيش الوهم دائمًا في نظرتي للحُب ولمن أُحبهم..
الوهم قرين حكاياتي في مُعظم الأوقات..

أعرف اليوم أني ضحية حسن ظني الدائم وطيب نواياي، ولا يُلام على تطرفي في حسن الظنون سواي..

أنا التي لا تتعلم من أخطائها وتُلدغ من نفس الجحر ألف مرة ومرة، لتعود إليه مرة أُخرى وكأنها تدخله للمرةِ الأولى..

الحقيقة أنني لم أعرف بأنها ستكون النهاية حينما غادرتك إلى الوطن.. لم أكُن أظن أن الصفحة ستطوى أخيرًا ونهائيًّا هذه المرة..

دائمًا ما كانت النية لتركك حاضرة، لكنني كُنت أجد نفسي فجأة أعود بنفسٍ غفورة وقلبٍ مُتسامح إلى جحرك في نهاية المطاف لتباغتني بلدغة سامة أخرى..

كُنت مُترددة في الرحيل كعادتي. لم أَكُن واثقة من قُدرتي على تركك.

ظننتها ككُلِ مرة رغم حجم المأساة التي كُنت أعيشها معك، إلا أنني لم أكُن أُدرك أنني قادرة فعلًا على أن أغادرك..
الغريب أنني استطعت! فاجأت نفسي قبل أن أُفاجئك وقدرت على أن أتركك!

صحيح أن الأمر لم يَكُن سهلًا أبدًا، لكنه لم يَكُن مستحيلًا كما كُنت أظن..

كُنت أشعر ولسنوات طويلة بأنني حبيستك. كُنت مسلوبة القدرة على الانفكاك عنك وعن مغادرة دائرتك..

لطالما شعرت وكأنني مسحورة، مفتونة بك، أرتد إليك مهما حاولت الابتعاد عنك..

لكنني غادرتك في نهايةِ الأمر بدونِ أن يتوقع أحد منا ذلك، وكأن الله اختار أن يُسدل ستار حكايتنا في ذلك التوقيت مثلما اختار التوقيت الذي فتح فيه ذلك الستار بدون أن نخطط له وأن نختاره..

ألا يُقال دائمًا بأن الأمر لا يحتاج أحيانا إلا لمجرد خطوة أولى في طريق الألف خطوة؟!

راسلت حينذاك جامعة نيويورك للدراسة الدكتوراة.
حزمتُ حقائبي وعدت إلى الوطن بانتظار رسالة القبول التي كُنت على يقين من أنها لن تأتي، وأنني سأضطر إلى العودة إليك لا محالة، فأستكمل دراستي في فانكوفر ولأعاود استكمال حكايتي غير المنتهية معك..

أُدرك اليوم أنني لم أَكُن جادة في الانتقال إلى نيويورك. الحقيقة أنني لم أتوقع أصلًا أن أحصل على قبول للدراسة في تلك الجامعة على وجه الخصوص.. قدمت أوراقي لها بلا تعلق ولا رغبة ولا توقعات،
كما تقدمت بطلب الالتحاق لعشرات الجامعات غيرها. كانت محاولة لمجرد المحاولة. أردت أن ألتهي بخطط أُخرى غير مضمونة، أي مشروع يبعدني عن التفكير بك وعن جغرافيتك في ذلك الوقت لأُعاقبك..

لكن الرسالة غير المتوقعة وصلت، ووجدت نفسي فجأة بعد بضعةِ أشهر من تلك الرسالة أمشي لوحدي في ممر الطائرة باتجاه الولايات المتحدة الأمريكية، أجر بيميني حقيبتي الصغيرة المليئة بذكرياتي معك، بدونِ أن تُرافقني في تلك الرحلة وبدونِ أن تكون وجهتي هذه المرة..

ماذا عساي أن أخبرك عن انتقالي إلى نيويورك متأبطة جراحي ومتكئة على وحدتي؟

بإمكانك أن تتخيل أنني عُشت الغربة مرتين في تلك الرحلة/ المرحلة..
ظننتُ بأنني قد اعتدت الغربة بعد كُل السنوات الطويلة التي عشتها في فانكوفر، لكن يبدو أننا لا نعتاد على الغربة إلا لو تشاركناها مع من نُحب.. وقد كانت غربتي حالكة ومُرة بدون أن أُشاركك إياها.. بدونِ أن تكون جزءًا منها ومن دونِ أن تكون بيتي ووطني فيها..

شعرت وأنا أعيش الأشهر الأولى في الغربة في نيويورك وكأنها تجربة اغترابي الأولى، وكأنني أُحلق لأولِ مرة بعيداً عن عُش وسرب أهلي..

الحقيقة هي أنني لم أعرف من افتقدته أكثر هُناك، هم أم أنت أم نفسي التي لم أَعد أعرفها بدونك؟
افتقدتُ أهلي كثيراً في غربتي الجديدة، هم الذين لطالما تمنيت العودة معك إليهم والاستقرار بين أحضانهم من بعد طول الغياب..

وافتقدتك أيضًا كثيرًا، أنت الذي تبددت غربتي بعيداً عنهم بعدما عرفتك، وتكثفت وتشكلت من جديد بعد أن تركتُك..
مممم! تركتك أو تركتني؟! بالمناسبة، برأيك من منا ترك الآخر بعد هذه السنوات؟!

أنت الذي خُنتني بدم بارد وبلا مُقدمات؟ أم أنا التي هشمتها الخيانة فتشظَّت ورحلت بعدما لملمت شظاياها وبعد طولِ صبر والكثير من العذابات؟!

أتعرف!

لم أُفكر كثيرًا فيمن سبق الآخر في الرحيل. لم يَكُن يهمني من ترك الآخر وقتذاك. كُل ما كان يهمني حينها هو ألا نفلت من بعضنا البعض، أن نُحافظ على أبديةِ علاقتنا، لأنني كُنت متشبثة بتلك العلاقة بعقلي وقلبي وروحي وبكل عضو حي في جسدي..

كُنت معلقة فيها بدونِ أن ألقي بالًا لعزة نفسي وكرامتي التي كانت تئن بداخلي تسألني وتُناشدني النهوض والثورة وطي الصفحة والرحيل..

كان ذلك الصوت مُتعبًا وضعيفًا بداخلي فتجاهلتهُ مرارًا وتكرارًا. لم أنصت إليه ولم ألتفت إليه رغم أنني كُنت ألتمس صدقه وحكمته الجلية بداخلي..

أنا لم أقدر على أن أرحل عنك ولم أسمح لك بالرحيلِ عني. كُنت أوارب الباب دائمًا لأسهل عليك العودة، أستقبلك بعد كُل عودة مثلما كُنت قبلها، أنسى أو أتناسى ما حدث منك ولا أُبارح مكاني بانتظارِ أن تعود..

كم كان الرحيل مُستحيلًا بالنسبةِ لي حينذاك. كم كُنت ضعيفة ومُتعلقة ومعدومة الحكمة!

لكنني لم أعد تلك الفتاة التي كُنت يا عزيز. صحيح أنني لا زلت أُكرر نفس اختياراتي القديمة الغرة السابقة، وما زالت توهمني البدايات، وأُخدع في البشر وأختنق بتكرارِ السعي الحثيث وأستبسل لإنجاح علاقاتي، وما زلت المبادرة للإصلاح بمئات المحاولات، إلا أنني لم أعد كما كُنت أشعر بعد النهايات.. تغيرت نظرتي تمامًا لما بعد النهاية..

بتُّ لا ألتفت إلى من سقط خلفي بعد الرحيل، وأصبح كُل من يُغادرني مُجرد إنسان غريب، يعود إلى موقعهِ القديم غريبًا عني كما كان..

لم أعُد أندم على من يرحلون عني أو عمن أرحل عنهم، فما دامت قد دُقت أجراس النهاية وقُرعت نواقيسها فلم يعُد هُناك معنى للحسرة والندم..

أتصدق ذلك!

تعلمتُ الرحيل بعدما تركتك، تهجَّيته وتعلمت أبجدياته من بعد طول أُمِّية فيه. علمتني حكايتي معك أن الرحيل ومهما كان صعبًا ومُرًّا وداميًا وقاسيًا، لكنه لم يَكُن يومًا مُستحيلًا كما كُنت أشعر وأعتقد حينما كُنت معك..
لطالما ظننت أننا نموت حينما نُغادر علاقة حُب،

" لكنني ورغم موتي مرتين في حكايتين معك ومعه، إلا أنني تعلمتُ أننا نبعث بعد ذلك الموت من جديد.. نستيقظ من الرماد وننتفض ونضطر لأن نمضي مُحلقين بعيداً بأجنحة ملطخة ببقايا الموت والبعث، نحمل ثقل أجنحتنا باحثين عن أرض جديدة لنبدأ فيها مهما كُنا مُثقلين ومُتألمين ويائسين لنحلق بعيداً، بعيداً..

كُنت أظن قديمًا بأن النهاية تكون عند النقطة التي تُغلق فيها الدائرة، لكنني أدركت أنه حالما تغلق دائرة فإننا نبتدئ بنقطة جديدة دائرة أُخرى قد تكون أصغر مما سبقتها،

وقد تفوقها حدودًا وحجمًا ومساحة، تدور وتدور وتدور عجِلةً هذا الدائرة حتى ينتهي المغزى من وجودنا فيها فنُغادرها على الرغمِ منا، برضا أحيانًا وبمرارة في معظم الأحيان لدائرة أُخرى جديدة نختارها أو تختارها الأقدار لنا لتدور بنا من جديد..

أفهم اليوم أنه يتوجب على كُل إنسان منا أن يفهم المعنى من وجودهِ في كُل دائرة من دوائر الحياة، أن يعي جيداً لمَ بدأ فيها ولمَ انتهى منها، وأظن بأن الفرق في وعيَينا اليوم أنا وأنت، أنني بتُّ أعي أو رُبما أنا على مشارف أن أعي وأفهم الأسباب التي دفعتني للمرور بهذه التجارب والاختبارات والأشخاص الذين مررتُ بهم وعُذبت كثيرًا من خلالهم..

ربما لم أكُن لأعي هذه الأسباب لولا تشابه تجاربي وتكرار أخطائي فيها..

بينما أظن بأنك لم ولن تفهم يومًا المعنى من تلك الرحلة وتلك التجارب، لا لعدم رغبتك بفهمها بل لعدم قدرتك على أن تفهمها، أنت المشغول بخلق الأسباب والغارق في نرجسيته لدرجة يستحيل فيها أن يعي دروسه في الحياة وأن يتعلم منها أي شيء...

رجُل مثلك سيستمر على نفس الخطى وسيُعيد ذات الأخطاء وسيُكررها مع ضحايا مُتشابهات، نساء وفتيات يتشاركن الغرارة نفسها، ذات السذاجة، ونفس الاحتياجات العاطفية البسيطة المتواضعة، فتيات يعشن معه على فُتات الوضوح وبصيص الإخلاص..

أتساءل أحيانًا في أقصى حالات غضبي وسوء ظني بك، أمن المعقول أنك تدرس ضحاياك قبل اختيارهن؟! أم أنك تملك غريزة الصياد الذي اعتاد بخبثِ فطرته على اقتناص البريئات؟!

لو تعرف كم أتمنى أن أقدر على أن أسامح سلطان مثلما سامحتك!

لا أقصد بمسامحته على أن أعود طرفًا في الزواج مجددًا.

أن أسامحه يعني أن أنظر إليه تلك النظرة الودودة اللطيفة المتسامحة التي لا زلتُ أحملها لك من بعدِ فراقنا، بدلًا من نظرة الاشمئزاز والازدراء التي بتُّ أنظرها له والتي باتت تؤلمني أكثر بكثير مما أظن بأنها تؤلمه..

تلك النظرة التي دفعتني لأن أنتهي من علاقتي معه، وذلك الشعور بالاستحقار الذي يملأني تجاهه..

ربما لو كنت قدرت على أن أحافظ على احترامي له بداخلي لقدرت على أن أستمر في زواجنا، فقد يستمر الزواج بلا حب ما دام الاحترام موجودًا،

لكن الزواج ينتهي ما إن يسقط جدار الاحترام حتى لو ظل الحُب مُتقدًا ما بين الطرفين..

للأسف أنا لم أتزوج هذا الرجل لمجرد أنني شعرت بالحُب تجاهه،

بل لأنني شعرتُ بأنه الرجل الذي سأفتخر دائمًا كوني زوجته، بتفرده واستثنائيته ومبادئه واختلافه.. تزوجته لأنني ظننت بأنه لا يشبه الرجال الذين لا أحترمهم، تزوجته لأنه لا يُشبهك!

لكنه لم يُعد ذلك الزوج ولا حتى ذلك الرجل، الذي ظننته وتزوجته بناء على ذلك الظن الذي يبدو اليوم وهمًا عجيبًا وتافهًا..

أصبح سلطان رجُلًا غريبًا، غريبًا جدًّا. رجل يخجلني حقًّا ارتباطي فيه، ويحرجني اقتران اسمي باسمه..
رجل لم يعد يشرفني ولا يليق بامرأة مثلي أن تكون زوجه له..

ألم أقل لك بأنني لم أعد كما كُنت؟!
لم أعد أقبل بالمساومة على العواطف ولا ابتزاز مشاعري ولا بتكرار الخيبات..

لم أعد أقبل بأي رجل تجرأ أو يجرؤ على أن يُقارنني بأي امرأة أُخرى كما فعل وكما فعلت أنت..

لم أعد أقبل بمن ينقضون العهود ولا بمن ينكثون وعودهم مهما كانت مكانتهم عندي ومهما بلغ مقدار حُبي لهم..

للأسف بقدرِ ما كان انفصالي عنك مؤلمًا, بقدرِ ما كان انفصالي عن سلطان شبيهًا بالاحتضار..

أتعرف كيف يُنتزع إنسان من أعماقك؟! كيف يُجتث اجتثاثًا بجذوره وعروقه المتشعبة بداخلِك؟!

كم يبدو رحيلي عنك بسيطًا وتافهًا مُقارنة فيما واجهته في رحيلي عنه!

عندما قررت أن أتركك، كُنت أعرف بأنني سأتداعى وأتشظَّى وأتشتت، لكنني كُنت أعرف أنني سأكون وحدي في رحلةِ الوجع تلك، كُنت سأُنازع غيابك وحدي، وأتألم طويلًا وكثيرًا،

وأشفى وأتعافى وأتجاوز وأنتهي من كُل ما جرى في نهاية المطاف..

لكننا كُنا ثلاثة على ضفة الوجع في حكايتي معه، أنا وطفلاي اللذان لم يَكونا ليختارا أن يعيشا بعيداً عن والدهما مهما كانت الأسباب..

هما اللذان لم يقترفا أي ذنب ليعيشا نصف ما تبقى لهما من الطفولةِ في نصف أسرة، مهما حاولت وحاول أن نهيئ لهما أسباب السعادة والحياة الطبيعية والنجاة..

لم يَكُن صعبًا عليَّ فقط أن أنقلهما معي لحياة جديدة بدونِ والدهما، كان صعبًا عليَّ أن أشفي ألمي لأنني كُنت مشغولة بتشافيهما.. لم أكُن أملك رفاهية التخطي، لأنني كُنت غارقة في أن أوفر لهما كُل سبل التعافي من ذلك التغيير وذلك الفقد..

أتعرف أنهما من أخبراني بخيانته؟!

تصور! كانت تخبرني هيفاء عن خيانتك لي، وكانا طفلاي يخبراني عن خيانةِ والداهما! أما أنا فكُنت أعيش في عوالم خيالية أُخرى فيما يبدو! كُنت غارقة دائمًا في نظرتي الحالمة الغرة الساذجة وردية النوايا! بعيداً بعيداً عن الواقع الحالك..

أذكر اليوم الذي جاءني فيه فيصل ابني الأكبر ليوقظني من غيبوبة الثقة التي كُنت غارقة فيها..
كُنت مضطجعة على الأريكة في نهار يوم سبت كسول، أقرأ كتابًا لم أنسَ عنوانه حتى الآن، وكأن ذاكرتي تأبى أن تطرد تلك اللحظة بما فيها من تفاصيل. كان فيصل يفرقع أصابعه بتوتر وفي عينيه الكثير من التردد. يقف وهو يتأرجح يمينًا وشمالاً كعادته عندما يود طلب شيء.

أقفلت كتابي وسألته مُمازحة: فيصل! ما هي طلباتك هذه المرة؟!

قال بجدية بملامح حائرة: ماما.. هل أنتِ مشغولة؟

ـ حتى وإن كُنت مشغولة، سأترك كل شيء من أجلك..

اعتدلت بجلستي وربتُّ على الأريكة بجواري: تعال!

جلس وهو مستمر بفرقعة أصابعه: ماما! هل لديكِ أصدقاء رجال؟!

ـ لدي زملاء عمل، لماذا؟!

ـ لا! أقصد أصدقاء أصدقاء! تتحدثين معهم طوال الوقت على الهاتف وتجرين محادثات فيديو معهم بالسر بدونِ معرفة بابا!

ـ لا! لماذا تسأل؟!

ـ هل من "العادي" أن تفعلي هذا؟!

ـ لا! ليس من العادي أن أتواصل مع أي أحد بالسر وبدونِ معرفة والدك!

ـ لماذا يفعل بابا ذلك إذن؟!

شعرت وكأن دلواً من الماء البارد يصب فوق رأسي! بصفعة قوية على حينِ غرة!

ـ يفعل ماذا يا فيصل؟!

ـ لماذا يُحادث فتاة اسمها نورة طوال الوقت بدونِ أن تعرفي؟!

ـ ربما هي زميلته في العمل!

وضع أصابعه على عينيه كعادتهِ حينما يقاوم الدمع ليحبسه، وقال بصوت مخنوق: ماما! بابا يخدعكِ وأنتِ لا تعرفين!

مسحت على رأسه في محاولةٍ لتهدئته، ووضعت يدي على كتفه وقلت: لا بد من أنها زميلته يا فيصل ولا بأس في ذلك! ولا تنقل لي أية أسرار عن والدك! لا تتجسس على والدك أبدًا أبدًا!

هز رأسه وهو يبكي قائلًا: لكنه يخدعك يا ماما!

ضممته وقُلت: لا بد من أنها زميلته يا فيصل! لا تقلق!

طلبت منه أن يُكمل لعبه مع تركي كيلا يُعطيني أية تفاصيل لم أَكُن مُستعدة لمعرفتها في ذلك اليوم، أو ربما لم أَكُن مستعدة لمعرفتها إلى الأبد..

التفتُّ إلى الكتاب الذي كُنت أقرأه والمرمي بجواري بعنوان "لماذا يحُب الرجال العاهرة؟!"، وشعرت بأن العالم يدور بي!

بقيتُ ثلاثة أيام أنازع الفكرة، فيما يتوجب عليّ فعله وفيما لا أود معرفته وأحتاج لأن أتجاهله..

عاد سلطان إلى البيت بعد نهاية عمله بساعتين كعادته مؤخرًا. انتبهت يومها أنه يعود إلى البيت مُتأخرًا متذرعًا بضغوطِ العمل منذ أشهر، وأنني كُنت أصدق ذلك العذر ببراءة فلم أسأله عن أية تفاصيل تخص ذلك التأخير وتلك الضغوط الجديدة التي كان يعود وبرغم وجودها سعيداً ونشيطًا ومُتحمسًا للبيت كل يوم، بدونِ أن يتأثر بها أو يتحدث عنها كعادته..

سألته عن يومه وهو يُغير ملابسه في غرفة الملابس كعادتي حينما يعود من عمله. أخذ يحدثني عن يومه باختصار. قُلت له عندما انتهى: سلطان، بخصوص نورة! تصرف!

وقف مبهوتًا. لمع جبينه كعادتهِ حين يكذب وقال: أي نورة؟!

قُلت باقتضاب واختصار: سلطان! تصرف!

هز رأسه بملامح اختفى منها لون الدم وقال: أبشري!

لم أفتح الموضوع معه مرة أُخرى، لم أسأله، لم يسألني، لم أبحث ولم أفتش خلفه، وكُنت أحاول في كُل مرة أذكر فيها تلك اللحظة أن أطردها وأنا أطمئن نفسي بأن لو كان هُناك أي شيء حقيقي، أي علاقة قائمة لأخبرني يومذاك، لتشجع وصارحني في ذلك الموقف كما يفترض أن يفعل الأسوياء والشرفاء!

كُنت أحاول إقناع نفسي بأن نورة تلك ليست إلا مُجرد زميلة، ربما بالغت هي في الاتصال وربما بالغ هو في الإجابة، وأن الحدود قد وضعت وانتهى الأمر وأُسدل ستار الحكاية وعاد الجميع للعيش في سبات ونبات!

حتى جاءني تركي ابني الأصغر بعدها بسنتين، وعمره حينذاك لا يتجاوز السادسة، سألني بارتياب: ماما أريد أن أخبرك شيئًا لكنني أخاف أن تنجرح مشاعرك!

ظننتهُ سيعلق على لون شعري الجديد أو عن الرطلين اللذين اكتسبتهما مؤخرًا. قُلت: أخبرني!

قال بالإنجليزية: بابا يخونك!

ـ ماذا تعني بـ "يَخونني"؟!

قال بالإنجليزية أيضًا والتي يستخدمها حينما يُريد أن يعبر عن شيء يشعر أنه غير قادر على إيصاله بالعربية: بابا يتكلم دائمًا على الهاتف وبمكالمات فيديو مع فتاة بدون أن تعرفي..

كنت مصدومة لمعرفة طفلي في هذا العمر لمصطلح الخيانة ولقدرته على تمييزها!

كُنت أعرف أن تركي سهل الإقناع لصغر سنه وبراءته. قُلت له ببساطة: نورة زميلته في العمل يا تركي وأنا أعرفها..

ـ لا! هي صديقة بابا السرية! هل جرحت مشاعرك؟!

ـ لا أبدًا!

ـ هل أنتِ بخير؟

ـ دائمًا أنا بخير، لا تقلق!

ـ حسنًا، لكنه دائمًا ما يتكلم معها في السيارة وأنتِ غير موجودة، لا يكلمها وأنتِ موجودة أبدًا!

ـ لا بأس! أخبرني والدك!

هز كتفيه وكأنه رمى حملًا ثقيلًا من على كتفيه وقال: حسنًا! هل أستطيع أن أذهب مع أبناء عمي لنلعب الكرة؟!

قبلت رأسه وتغصّبت ابتسامة كبيرة، كبيرة جدًّا بحجم الألم الذي استوطن قلبي فجأة وقُلت بابتذال: بشرط أن تفوز عليهم هذه المباراة!

راح يركض وهو يحمل كُرتهُ بحماس الفائز، أما أنا فانكمشت في مكاني واهنة من صدمة الخسارة..

كُنت مخذولة جدًّا، مصدومة جدًّا، لكنني لم أسأل سلطان عنها تلك المرة. كُنت أعرف أنني غير مُستعدة لمعرفةِ أي شيء في تلك الفترة.
كُنت بحاجة لأن أستعد، لأن أتهيأ لمعرفةِ الحقيقة، فالحقيقة دائمًا مُرة حينما تُباغتنا، وقد كُنت أستحق أن أتهيأ لها..

أنا أُدرك وأعي في هذه المرحلة من حياتي أنَّ كُل الصدمات التي مررت فيها حدثت لي ووقعت في تلك الفترات لأتغير يا عزيز..

كانت تلك الصدمات هي طريقة القدر القاسية التي كان يُناشدني فيها لأن أتغير، لكنني للأسف كنت بطيئة التعلم حتى من أصعب الدروس وأقساها، لذا

تكررت بعض الصدمات في حياتي بتفاصيل مُتشابهة وبذات الأوجاع.. فالدروس تتكرر علينا إن لم نتعلم منها، وإن لم نصل إلى المغزى منها ونفهم المعنى من حدوثها لنا، بل وقد تزداد حدتها حدة وقسوتها قسوة إن استمرينا في تجاهلنا لها لأن

الحياة لا تطيق الأغبياء..

أفكر أحيانًا لمَ تنكشف لي الحقائق بلا سعي مني لمعرفتها؟! لمَ تتعرى في وجهي بدون أن أحاول الوصول لها.. هكذا؟! فجأة!

لم أسعَ يومًا لمعرفةِ سر ولا لانتهاك ستر.. تأتيني الحقائق دومًا بلا جهد مني، فأشيح عنها لتطل بوجهها الصريح القبيح عليَّ من الجهة الأُخرى، وتحدق في عيني بدونِ أن ترمش، مُهددة إياي بعينيها وبلا صوت أن تخيفني بوجه جديد أكثر بشاعة إن استمريت في الصد عنها كجاثوم مرعب.

أغمض عيني بقوة كيلا أراها فتصفعني على وجهي بقوة كي أفتح عيني وأحدق في عينيها ولا أعاود الإشاحة عنها!

أعرف اليوم أن دافعي في التغاضي عن تلك الحقائق لم يَكُن حُبًّا لا مشروطًا ولا مغفرة مُتناهية، بل كان تعلقًا مريضًا وضعفًا شديدًا تجاه أولئك الخونة الذين أحببتهم...

كان حُبي لكما احتياجًا كبيرًا، لذا أحببتكما أكثر بكثير مما أحببت نفسي، ولذا كنتما أيضًا مصدرَي صدماتي في الحياة، لأتعلم منكما أن الحُب يضيف لنا لكنه لا يكملنا، وأن حُبنا لأنفسنا من المفترض ألا يتجاوزه حبنا لأي أحد.. أي أحد..

لكنني تغيرت اليوم رغم أنني قاومت هذا التغيير طويلًا بقوة وشدة، لأنني لطالما خفت أن أتغير وأن أفقد جُمانة الأصيلة التي بداخلي، لكنني عرفت وأدركت في نهاية الأمر أنني مُضطرة لأن أتغير لأحافظ على ما تبقى منها وكيلا أخسر منها أكثر مما خسرته حينما كُنت معكما..

صدقني، اخترتُ أحلى الأمرّين، اخترتُ أن أتغير!

لأنني أدركت بأن الحياة ستواصل إيلامي إن لم أتعلم من تجاربي المريرة السابقة..

إن لم أتغير، فسيظهر في حياتي مُجددًا أمثالك وأمثاله، ليصهروني ويمزقوني ويهشموني مرة تلو المرة..

لو تدري كم كان هذا التغيير شاقًّا عليّ! كم من الصعب على الإنسان أن ينسلخَ من ذاته ليُصبح نسخة جديدة منه، نسخة أكثر نضجًا وعُمقًا وأكثر قوة لا تشبهه في الغالب إلا في القليل.. كي يقدر على أن يتخطى ويتجاوز الذين مر بهم وينفض عنه من بقوا وتركوا شيئًا منهم فيه..

لو تدري كم هو غالٍ ثمن ذلك التغيير؟! الثمن الذي دفعته أجزاءً من روحي وقلبي وسكينتي وراحة بالي وسلامي وطمأنينتي التي خسرتها، والتي لا يعوض فقدانها وخسارتها أي شيء..

تعرف أنك لم تمر في حياتي مرور الكِرام، ويعرف هو أنه لم يمر في حياتي ليرحل منها يومًا. جئتَ فبعثرت روحي بمرورك ورحلت، أما هو فجاء إلى حياتي ليوجعني بقاؤه القسري فيها إلى الأبد..

أنا لن أستطيع الانتهاء منه بعدما أنجبت ولديَّ منه مهما أردت ورغبت بذلك يا عزيز!

أعرف أنك لم تُجرب الأبوة ولا تفهم طبيعة وعمق وتعقيد مشاعرها، لكنك قد تفهم أنه حينما يتشارك رجُل وامرأة روحًا ما،
فلا قدرة لقوة على أن تفرقهما حتى وإن افترق جسداهما.. تظل تلك الرابطة تربطهما وإن انقطع تواصلهما وسلك كُل واحد منهما دربًا جديدًا وبعيدًا عن الآخر.. لذا لم يَكُن من السهل عليَّ التخلي عنه!

لن أدعي أنني كُنت شجاعة وقوية بما يكفي لأن أتركه. سامحت كثيرًا وترددتُ طويلًا وتراجعتُ مرارًا قبل اتخاذي هذا القرار.

كلفني الأمر ألما ضخمًا وجروحًا عميقة وخيبات كثيرة، واستغرق مني سنة كاملة لأحسم أمري وأتمكن من الخروج من تلك الدائرة المسيئة المهينة التي لم يَكُن يليق بي الاستمرار أسيرة فيها..

صدقني، تمنيتُ كثيرًا لو أنه استطاع أن يتغير لأغفر وأُسامح وأمضي معه ما تبقى لنا من عُمر، لكنني كُنت أعرف أنه سيسعى ـرغم كُل المحاولات اليائسة التي كان يُقدمها لأجليـ لأن يُبقيني كيلا أتركه. كان يخاف من أن أتركه قبل أن يتركني باختصار..

كُل ما كان يعنيه أن يكون تاركًا لا متروكًا، هاجرًا لا مهجورًا، مُتخليًا لا مُتخلى عنه!

كانت أناه ضخمة لدرجة عدم قدرته على أن يحتمل فكرة أن أتخلى عنه. كُنت بالنسبة له الركُن الآمن، السند المضمون، الورقة الرابحة والمرأة التي تُحبه وستحبه بلا شروط، والتي لن تقدر على أن تُفرط فيه ذات يوم لأي سبب ومهما فعل بها..

صدقني، أخذت مني تلك الانتفاضة أكثر بكثير مما أخذت منه. فعلت بي أكثر بكثير مما فعلت به. أحاول أن أواسي نفسي في أن أقنعها بأنه من خسرني، لكنني خسرتُ الكثير من نفسي عندما كُنت معه ولا شيء قادر على أن يُعيد تلك الأجزاء المبتورة مني إلي..

أواسي نفسي أحيانًا في أنني خرجت من علاقتي معه بولديّ بأنهما عوضي الجميل عن كُل ما لاقيته معه، أنا التي لطالما تقت لأن أكون أمًّا، المرأة التي وجدت وتجد وستجد نفسها أمًّا قبل أي شيء وقبل كُل شيء..

لكن كوني أمًّا جدًّا، يجعلني أشعر بالذنب تجاه طفليّ لتركي والدهما الذي يُحبانه، حتى وإن لم أَكُن أنا سبب هذا الترك.

كوني أمًّا جدًّا كان من الأسباب التي دفعتني أيضًا لأن أسعى لفترة طويلة لأحرث مساحات الدمار الشاسعة التي كانت تفصل ما بيننا، وأتغاضى عن استغفاله لي وعن الكثير مما كان يدور حولي بسببه..

لكن هذه التضحيات التي أقدمتُ عليها لكوني أمًّا جعلتني أمًّا حزينة في مُعظمِ الأوقات، أو أمًّا تبدو سعيدة بروح حزينة، حزينة جدًّا..

مسكينة هي تلك الروح!

كم أحتاج وتحتاج لأن نحتضن بعضنا بشدة، لأن أخبرها وتخبرني بأننا بذلنا أكثر بكثير مما كان يفترض بنا أن نبذله، وأننا قدمنا أكثر بكثير مما كان يفترض بنا أن نُقدمه..

أن كُل ما تعرضنا له لم يَكُن لسوء فينا بل لفرطِ طيبتنا وشدة تسامحنا معه ومعك قبله..

كم أود أن أحتضن تلك الروح، أن أخبرها أنها تستحق الطمأنينة التي فقدتها معه، والسكينة التي نستها بسببه، وأنها تستحق أن تعيشَ فصلًا جديدًا هادئًا بعيدًا عن كُل الألاعيب النفسية والعقلية التي واجهتها معه..

كُنت أعرف أنني سأضطر لأن أصل إلى هذه المرحلة التي أتجرد فيها من كُل ما تمسكت به لأنجو بما تبقى من نفسي وبقايا كبريائي، وأنني سأندم حينها وبعدها على العُمر الطويل الذي أهدرته لإصلاح علاقة شديدة العطب، وللتمسك بشريك نرجسي مُضطرب وعلاقة مشوهة ومريضة..

كان سلطان يردد دائمًا في لحظات ابتزازه العاطفي لي بأن علاقتنا ماتت. قال لي في آخر مرة سمحت له وقبلت بأن يبتزني فيها: علاقتنا لم تمت. ماتت ودفناها وانتهت!

لكنني سألته عندما قررت الرحيل وحينما تمسك هو ببقائي عن السبب الذي قد يدفعني للبقاء بعدما مات حُبنا وانتهت علاقتنا مثلما كان يقول لي لسنوات طويلة.

نفى ما قاله في البداية كعادته! ومن ثم قال لي بأنه لم يقصد أن تكون علاقتنا قد انتهت أو ماتت حسبما قال لي حرفيًّا، بل إنها كانت مريضة، وأنه سيعمل كُل ما بوسعه كي تتشافى لتعود كما كانت عليه من جديد..

كُنت أنظر إلى عينيه اللتين بدتا بريئتين وصادقتين بقدر بشاعة الكذب الذي كُنت أُدرك بأنه يخفيه خلفهما. كان مؤلما وموجعًا وقاسيًا أنني لم أعد أصدقه في شيء، في أي شيء، وأن عينيه اللتين كُنت أهيم ببراءتهما فقدت تلك البراءة الخادعة التي كُنت أتوهمها إلى الأبد..

كان مؤلما جدًّا بالنسبة لي أن أخسر ذلك الوهم! أن أفقد احترامي له بشكل تام ونهائي وقاطع. كُنت أعرف أنه مهما فعل لن يقدر على أن يُعيده إلى ما كان عليه في حياتي..

كُنت أنظر إليه وأشعر أنني أنظر إلى فراغ، خواء، جثة هاملة لرجُل غريب. لم أعد أعرفه ولم أعد أفهم لمَ وكيف بقيتُ لسنوات في زواجي معه. رجُل لم أعد أذكر لمَ وكيف أحببته.

رجُل لم يَعد يملك أي شيء يبقيني معه ولم يَعُد يغريني الاستمرار معه في شيء..

لكنني رغم ذلك قررتُ أن أسلك كل الدروب وأطرق كُل الأبواب وأجرب كل الحلول قبل رحيلي عنه،

لعل حلًّا ما، شعورًا ما، شيئًا ما قادر على أن يُبقيني في تلك العلاقة مرتاحة البال مطمئنة الروح. أي شيء قادر على أن يجعلني أنسى ذلك الفصل القاتم من حياتي لأبتدئ معه من جديد صفحة نقية بلا شوائب الماضي..

كُنت بحاجة لأي شيء يجعلني أتمسك به. كُنت أسأله بشكل صريح ومُباشر أن يفعل شيئًا، أي شيء يمنعني فيه من أن أرحل، لكنه لم يقدر على أن يُقدم إليّ شيئًا مما احتجت لأن يُثبته. لم يقدر على أن يُبقيني رغم كُل محاولاتي الصادقة للاستمرار والبقاء معه والبدء من جديد..

أتصدق!

تلعثمت في إحدى جلسات العلاج الزوجي عندما كدت أن أصفه بالخائن..

تصور! خجلتُ كثيرًا من أن أصفه بما هو فعلًا عليه!

قبضتُ على تلك الكلمة المؤلمة بالنسبة لي قبل أن تفلت من فمي، عضضتُ عليها بطواحني وابتلعتها مُرة وسامة كيلا يشعر بضآلته رغم ضآلته، وحقارته رغم حقارته..

ابتلعتُ جريمته ولم يَهُن عليَّ أن أضعه في هذا الموقف وإنسان ثالث غريب يجلس بيننا رغم استحقاقه للمرور بذلك الموقف وجدارته لذلك الوصف..

برغم أنني كُنت أعرف أن مجيئه معي لجلسات العلاج التي لطالما ناشدته لحضورها قبل قراري الجاد بالرحيل لم يَكُن ندمًا على ما حدث ولا أسفًا على ما اقترفه بحقي، بل خوفًا من أن يفقدَ السيطرة

على ما اعتاد السيطرة عليه، هو النرجسي جدًّا، المتحكم جدًّا والمسيطر جدًّا رغم حسن قوله وطيب معشره ولطف حضوره العام مع وأمام الناس..

حضوره كان لطيفًا وجذابًا لدرجة يستحيل فيها على أي إنسان أن يتخيل حجم الأسرار الحالكة خلفه.

أنا نفسي لم أتخيل يومًا كُل هذا القدر من الأسرار رغم كل الإشارات والمواقف، لدرجة أنني لا أذكر أننا قد تطاولنا على بعضنا في يوم من الأيام. كُنا هادئين مع بعضنا حتى في أكثر شجاراتنا وخلافتنا حدَّة.

وبرغم كل ما حدث بيننا، لم أصرخ يومًا في وجهه ولم يرفع صوته عليَّ أو يشتمني في يوم. دائمًا ما كانت حواراتنا هادئة مهذبة رغم الصدمات والخيبات..

بعكس مواجهاتنا أنا وأنتِ التي كُنت أحاول فيها أن أُجاري حدتك وسلاطة لسانك كيلا تتمكن من أن تغلبني..

رغم أنني تغيرت كثيرًا، إلا أنه يبدو أنني لم أتغير كثيرًا في حُزني.. أتذكر كيف كان شكل حُزني يا عزيز؟!

لا زلت أزداد هدوءًا وصمتًا حينما أحزن. تُثقل الكلمات على لساني وأشعر بأن أنفاسي بطيئة.

أنكمش وأنزوي وأصمت طويلًا، طويلًا جدًّا..

في الماضي، كُنت أقاوم الحُزن بالنوم، أما الآن فقد تواطأت الأمومة والأرق مع حزني عليّ، ولم يَعُد النوم ملجًا أستطيع اللجوء إليه في أوقات حزني..

اليوم أنام في شبهِ يقظة، أُفكر وأنا نائمة وأشعر بالاختناق حُزنًا حتى أثناء نومي..

لذا كان عليَّ أن أتغير، أن أحاول إنقاذ نفسي العالقة ما بين اليقظة والمنام، وأن أُقدم على كُل ما كنت أخشى الإقدام عليه مرة واحدة،

وأن أقبل بكُل التغيرات التي طرأت وستطرأ على حياتي بقبول ورضا وقناعة المتوكل على الله والمستسلم لأقداره..

رغم إدراكي بصعوبةِ أن أتعلم كيف أرضى وكيف أقبل وكيف أستسلم..

يُخيل لي أحيانًا أن إحدى مشاكلي في الحياة كانت لعدم قدرتي على قبول ما يتعارض مع مبادئي وقيمي.. أنا المرأة الصادقة جدًّا، الواضحة جدًّا، المباشرة جدًّا وغير القادرة على أن تفهمَ أو تقبل قيمًا هشة ومبادئًا هلامية ومطاطة..

كُنت أقاوم طويلًا بداخلي ظلم البشر وجور الحياة.

أظل أتجرع ذلك القهر لسنوات حتى بعدما أُغادر مناطق الظلم وأرحل عن أولئك الظلمة..

كم يُثير ظلم البشر وخداعهم وكذبهم وغدرهم غضبًا وحُزنًا وشعورًا عظيمًا في المهانة بداخلي!

فكيف بظلم وخداع وخيانة من شاركته الحياة والجسد والأحلام والبيت والثقة والأطفال؟!

أفكر أحيانًا في إمكانية أن يصغر الألم في داخلي، لو قدرت على أن أقبل بأن سوء الآخرين لا يمثل سواهم،

أن أُسلم بأن الحياة ظالمة في بعض الأحيان حتى مع من يتمسكون بقيمهم ومبادئهم مثلي بلا سبب منطقي ولا دافع شخصي لذلك الظلم..

أفكر فيما لو قدرت على أن أقبل بأن الحياة قد تظلم الناس بشكل عشوائي، بدون أن تلتفت لتاريخ حيواتهم ولا لشهادة حسن سلوكهم فيها!

شعوري بأنني لا أستحق المرور بكُل هذا، وإحساسي بأنه لا يفترض بامرأة مثلي أن تكون مع أمثاله وأمثالك كان خانقًا مُهينًا، لذا كان عليَّ أن أرضى بأن قدري تقاطع مع قدريكما لسبب ما لا أفهم حكمته الآن، سبب لا أعرفه ولا أفهمه وقد لا أعرفه ولا أفهمه أبدًا، لكنه موجود بلا شك رغم جهلي به..

كان عليَّ أن أُسلم وأقبل بهذا القدر حتى وإن شعرت بأنني قد ظُلمت فيه وأنني لا أستحقه. كان من الواجب عليَّ أن أتوقف عن كُل محاولاتي البائسة للفهم التي لطالما عذبني تشتتها وعدم جدواها..

كانت الأسئلة لحوحة ساخطة حانقة بداخلي. كُنت بحاجة ماسة لأن أفهم لمَ يحدث معي هذا؟! لمَ أنا؟! وما سبب كل هذا؟! وكيف ومتى ستتوقف هذه الاختبارات؟!

كُنت أبحث عن الحكمة بغضب، بتعاسة، بألم، لأنني كُنت أحتاج لإجابات صريحة وعاجلة من الحياة، أفهم من خلالها لمَ حدث ويحدث معي كُل هذا، لمَ تُسيء إليَّ الحياة رغم إحساني لها وحُسن خلقي فيها.

لكن الحياة لا تُجيبنا على مثل هذه الأسئلة بهذه البساطة ولا بهذه البساطة ولا بهذه السرعة، أو ربما وصلتُ إلى قناعة بأن الحياة لا تُهدر طاقتها في الإجابة على مثل هذه الأسئلة الإنسانية البسيطة والتافهة..

ربما عليَّ أن أقبل بكُل الأسى الذي لم أستحقه، وبكُل الغدر الذي لم أتوقعه وكُل الصدمات التي لم أستوعبها .

وأن أتوقف عن انتظار أية إجابات من القدر..

ربما عليّ أن أتجاوز وأتخطى وأنسى بدون أن أنتظر عدالة أو أتوقع أو حتى أطالب بثأر الحياة لي.. أن أقبل بالنتائج الجائرة بدون أن أحاول فهم ماهية الأسباب..

أن أسحب ذلك السكين المغروس من بين أضلعي وألملم جراحي وأمضي، فقط أمضي بأقل قدر من الخسائر.. بدون عتب أو ملام أو تحليل.. أمضي بدون أن ألتفت أو أن أُلقي نظرة على من باغتني.. أن أُسلم الأمر لله وأتخلى عن كُل محاولاتي للفهم..

أن أحاول التعافي والتشافي بدون أن تتحقق العدالة، رغم أنني لا أعرف حقًّا كيف سأقدر على أن أُشافي روحي المكلومة من كُل هذه الصدمات والغضب والحزن الذي اعتراها..

أنا مضطرة لأن أمضي قُدمًا في هذه الحياة يا عزيز، لأنني مدينة لطفليّ بالمضي دائمًا. مَدينة لهما بمقاومة كُل من وما قد يحاول كسري في هذه الحياة لأجلهما قبل أن أقاوم لأجلي..

أنا مُضطرة فعلًا لأن أمضي، وأن أدعَ كُل أولئك الذين تلاعبوا بي بدون أن أُفكر في الانتقام منهم بما فيهم أنت! لا لأنني لا أقدر على الانتقام، بل لأن الانتقام لا يُشبهني ولن يُسعدني في هذه المرحلة من حياتي..

أظنُ بأنني وصلت إلى مرحلة من العُمر والنضج تعلمت فيها أن إقدامنا على الأشياء التي لا تشبهنا سيؤذينا كثيرًا بعدما تنقشع سحب الحُزن وتنجلي عواصف الغضب..

لكنني ورغم قدرتي على التخلي عن رغبتي الشديدة والحادة في تحقيق العدالة، إلا أنني لا أعرف إن كُنت سأقدر على أن أتجاوز رغبتي في أن أفهم، فقط أفهم، لمَ تباغتني الحياة دائمًا فيمن أحبهم؟! لمَ معك ومعه؟! لمَ اختارتكما الحياة لتكونا وجعي ؟!

كم بودي أن أعرف كيف استطعت وتستطيع أن تحافظ على رباطة مشاعرك وأفكارك؟! كيف تملك القدرة على تسيير مشاعرك بما تمتليه مصالحك مع الآخرين أو الأخريات؟!

كيف تتخطى النساء وكأنهن محطات مُهملة على خط سفر سريع؟!

كيف لا يخلف بك حُزنهن بسببك أي أسى؟! كيف تفلت من كُل كارما بدون أن تدفع ثمن الأذى الذي تسببت فيه؟! كيف تقدر على أن تنام بدون أن تتأرجح ما بين قلق الأفكار وصرير المشاعر؟! ما بين الرغبة والضمير؟! أم أنك لا تُفكر أو تشعر وتعاني من شيء كهذا كما يشعر كل الناس؟!

كم أشعر أحيانًا بالغضب تجاهك! لأن الصفحة التي علقنا فيها بدون أن نطويها كانت إحدى أسباب عدم قدرتي على تخطيك..

الصفحة التي لا تطوى تطولها يد ما لتفتحها مرة أُخرى، غالبًا في وقت حُزن غير مُناسب..

ربما لهذا عُدت لأُفكر فيك كثيرًا حينما قررت الانفصال عن زوجي..

كان تفكيري الدائم بك حينها غريبًا وغير مفهوم. فسرت الأمر في البداية في خوفي من الوحدة ومحاولة لا وعيي في إيجاد الحُب من جديد مع رجُل يعرفه،

وفي منطقة عاطفية قديمة معروفة وآمنة بالنسبة له مهما كانت مؤلمة وحالكة في الماضي، إلا أنها منطقة يعرفها ويألفها، لا يُجازف فيها مع غريب مجهول ومُبهم..

الحقيقة أنني لا أعرف صدقًا لمَ عُدت للتفكيرِ بك؟!

هل لرغبة ضعيفة ويائسة بداخلي نفسي لأن أخون سلطان في تفكيري بغيره؟! أنا التي لا تقدر على أن تخون في أكثرِ من هذا..

أم لأنك الشخص الذي لطالما كان يسندني في أوقات حُزني وضعفي حتى في الأوقات التي كان هو المتسبب فيها بذلك الضعف والحزن؟!

لا أعرف! لكنني دائمًا ما كُنت أشعر ذلك الشعور الخفي في أننا سنضطر لأن نفتح تلك الصفحة القديمة في يوم ما وبطريقة ما ولسبب ما ، لنغلق فصل حكايتنا وننتهي منه إلى الأبد..

كم يؤسفني أنني غير قادرة على أن أُحبكَ من جديد يا عزيز! أنت تعرف أنني لا زلتُ أُحبك، لكنني لا أعرف إن كُنت لا زلت أُحبك أم أنني لا زلت أحب ذكرياتي معك! أنا لم أعد أُحبك بالطريقةِ نفسها، ولا بالصورة نفسها ولا بالقدر نفسه. لم تَعُد بالنسبة لي الرجل نفسه، ولم أعُد أنظر لعلاقتنا القديمة نظرتي السابقة لها، وهذا بالنسبة لي مُحزن، مُحزن جداً، لأنني أُدرك جيداً أنني لن أقدر على أن أعود لسلطان ذات يوم.

لن أقدر على أن أُحبه كما كُنت أفعل مهما أردت ومهما سعى، فبقدرِ ما هو صعب عليَّ أن أُخرج حُبًّا من حياتي بقدر ما يستحيل على من يخرج منها لأن يعود إليها..

كم هو مُحزن بالفعل انقطاع الرابط الغليظ الذي كان يربطُ بيننا بهذه الحدة وهذه القطعية!

مُحزن أن كل من أُغادره أو يُغادرني سيظل في حياتي مُجرد ذكرى أحمل تجاهها بعض المشاعر التي لا تُشبه مشاعري القديمة لها، ذكرى ميتة لا قدرة لأحد على إحيائها أو إعادة أي شيء منها..

لو تدري كم من المحزن ومن المؤلم جداً أن تخسر مثل هذه المشاعر في علاقة مقدسة كالزواج يا عزيز، فتُصبح في حياتك مُجرد ذكرى!

قرأت مرة في أحد الكتب عن التعافي من العلاقات أننا نترك نسخة من أنفسنا بعد رحيلنا عن كُل شخص نحبه، لذا نظل نُفكر في أولئك الذين انتهت علاقتنا فيهم لفترات طويلة بعد الرحيل، فنُفكر بهم بين الحين والآخر بعد التخطي ليس شوقًا لهم بل لتلك النسخ من أنفسنا والتي تركناها معهم عند رحيلنا عنهم..

وأظن أنني أشتاق لنسختي التي كانت معك قبل خذلانك لي، ونسختي التي كانت مع سلطان قبل صدماتي معه وفيه، لا لأنني أحببتكما فحسب، بل لأنني اشتقت لنفسي القديمة قبل أن يشوهها ويُغيرها الألم. اشتقت لجمانة المحبة والمحبوبة والتي لم يُغير العُمر ولا النضج ولم تغير الأمومة قدر احتياجها للحُب والعاطفة والإخلاص والوفاء والالتزام..

صدقني أنا لا زلتُ أحتاج لأن أكون المرأة المحبة والحبيبة بقدر ما أحتاج لأن أكون الأم، ربما بالقدرِ نفسه..

أُدرك أن في العالم المليارات من الرجُال المتاحين والمناسبين، وأن امرأة مثلي قادرة على أن تجذب بعض المئات منهم في أسوأ الأحوال، لكنني لا أستطيع التأرجح ما بين العلاقات. لا قدرة لي على أن أُجازف في مشاعري ومشاعر الآخرين، فالإخلاص جزء مُهم في تكويني والالتزام في الحُب شكل من أشكال طبيعتي المسئولة والوفية.. لا قدرة لي على أن أُحب الكثيرِ من الرجال ولا على الخوضِ في الكثيرِ من العلاقات رغم سهولة نشوئها في هذا الوقت من الزمن وهذه الظروف خاصة لامرأة مثلي..

لا أخفيك أنني خائفة جداً من عدم قدرتي على الحُب مجددًا يا عزيز. أنا لا أخاف ألا أُحَب لأنني أُدرك أنني سأقابل دائمًا من يطلبون ودي مثلما قابلتهم قبل معرفتي بك وفي الفترة التي فصلت علاقتي بك وعلاقتي بسلطان، لكنني أخشى ألا أجد من أُحبه بعد كُل هذه الرحلة الطويلةِ من الوجع والسلسلة الممتدة من الصدمات..

أعتقد أنني فقدت القدرة على الحُب بفعل الأسى الذي واجهته فيه. أشعر أنني لن أقدر على أن أُحب مُجددًا، وبأن دواخلي باتت مشوهة، روحي مخدوشة، وقلبي مكروب.. ولا أعرف إن كُنت قادرة على أن أجد من يُعيدني إلى نسختي القديمة التي فقدتها معك ومع سلطان من بعدك.

روحي التي سعيتُ طويلًا لأن أرقع شقوقها بعد رحيلي عنك والتي فقدت جزءًا كبيرًا منها معك حينما تركتك ولم أقدر على أن أستعيده أو أسترجعه حتى بعد مرور سنوات طويلة من التشافي والتخطي، ورغم نشوة العلاقة الجديدة التي عشتها مع سلطان وبهجة الأمومة التي لا تضاهيها في الحياة أي بهجة بالنسبة لي..

صدقني لم يَكُن من السهل عليَّ أن أثق بأي رجُل بعد تجربتي المرة معك.

صدقني لم تَكُن رحلة استعادة الثقة سهلة عليَّ على الإطلاق، لكن مجيء سلطان إلى حياتي جعلني أستعيد ثقتي بالرجال مُجددًا. دخوله في حياتي وطبيعته التي ائتمنتها جعلتني أشعر وأؤمن بأنك لم تَكُن إلا الرجل غير المناسب بالنسبة لي، وبأن الخيانة التي واجهتها معك حدثت لأنك كُنت الاستثناء، بأن المشكلة كانت فيك ولم تَكُن في عموم الرجال، بأن في العالم الكثير والكثير من الرجال المخلصين الأوفياء الأسوياء الذين لا يشبهونك، وأن ملايين قصص الحُب أبدية مثلما كُنت أعتقد ومثلما كُنت أنشُد. لم يكن الخطأ إلا في تفاصيل قصتي معك..

أنا على يقين اليوم من أنني لم أعد قادرة على أن أستعيد ثقتي في الرجال من جديد. تضررت روحي جدًّا بعدما فعله سلطان بي. أوذيت كثيرًا في هذه التجربة وتضررتُ لدرجة أنني لا أظن بأنني سأقدر على أن أصلح الأضرار التي أصابتني جراء تلك العلاقة..

كُنت حزينة جداً حينما غادرتك. طغى حزني على أي مشاعر أُخرى تجاهك أو تجاه علاقتنا. كانت معضلتي في التعامل مع مشاعري تتمركز حول الحزن الذي كان ضخمًا وحالكًا بداخلي، أما مشاعري عند تركي لسلطان كانت مُختلفة تمامًا، كان غضبًا حادًّا وشعورًاضخمًا بالمهانة..

شعرتُ بأنه قد أصاب أعمق نقطة في استحقاقي واحترامي لنفسي، لدرجةِ أنه بات من الصعب عليَّ التعامل معه..

كُنت ولا زلت أشعر بالاستفزاز عند سماع صوته، لطفه المصطنع بات يُثير الغثيان في نفسي، رؤيته كانت تُعيد إليَّ تلك اللحظة القاسية التي سقط فيها قناعه الأخير، تُعيدني إلى دوامة المشاعر تلك التي جرتني بداخلها فجأة فدُرت بداخلها حتى كدت أن أفقد نفسي فيها..
صدقني سامحتك سريعًا ومن أعماق قلبي بدون أن أسعى لمسامحتك وبدونِ أي مجهود.

كُنت متألمة جداً معك وبسببك، وظللت أتألم لفترة طويلة من الزمن، لكن مسامحتك كانت سهلة رغم كل أنواع الألم التي واجهتها معك. ربما لأن سقف توقعاتي بك ومعك لم يَكُن عاليًا رغم فرط رومانسيتي ووردية أحلامي، وربما لأنك تدرجت طويلًا في إيذائي حتى أصبحت أتوقع الضرر منك بقدر ما كنت أتوقع الحُب طوال الوقت..

طبيعتك اللعوبة ونرجسيتك كانت واضحة منذ البداية وإن كُنت قد حاولت إنكارها طوال عمر علاقتنا، لأنني أردتك أن تكون شخصًا آخر باختصار، شخصًا لا تُبعدني ولا تخيفني طبيعته، إلا أنك في نهاية الأمر وحينما انكشف قناعك، لم يظهر سوى وجهك الحقيقي الذي لطالما أشحت بوجهي عنه كيلا أرى حقيقته لسنوات طويلة، لذا لم يُفاجئني ولم يصدمني وجهك الحقيقي أبدًا..

لكن الأمر مُختلف مع سلطان رغم تشابه الفعل الأكبر، فحينما سقط قناعه انكشف وجه جديد لا أعرفه، وجه غريب عليّ، وجه غير متوقع ولا يمت إليه..

أنت لم تسعَ لأن تُخفي طبيعتك عني، كُنت تسعى لأن أقبلك بطبيعتك التي لا تُقبل، أما هو فقد ادعى أنه الرجل الذي كُنت أريده ليحصل عليّ ويكسبني..

ارتدى جلباب رجُل آخر، وادعى أنه إنسان آخر لا يُشبه حقيقته التي هو عليها، فقط ليتمكن من أن يكون معي..

خدعني! خدعني جداً!

أتذكر فيلم جوليا روبرتس (النوم مع العدو)، أعتقد بأنك تذكره، أنت لا تنسى هذا النوع من الأفلام..

أشعر اليوم وكأنه عنوان حياتي السابقة معه، بغض النظر عن تفاصيل الفيلم التي لم أعشها وإن كُنت قد عشت الشعور نفسه، وكأنني كُنت أنام لسنوات مع العدو، مع عدوي الوحيد في هذا العالم..

أتعرف معنى أن يكون عدوك الوحيد في الحياة هو أحب وأقرب الناس إليك؟! أن يكون عدوك جزءًا نابضًا منك؟!

تخيل!

بقدرِ ما كُنت أتوقع صعوبة الحياة بلا سلطان، بقدرِ ما صدمني تيسير حياتي بعد خروجه منها رغم صعوبة رحيله وثقله على نفسي..

حينما أغلقتُ باب هذه العلاقة فُتحت في وجهي عشرات الأبواب فجأة وبدون سابق إنذار!

حصلت على ترقية في وظيفتي في يوم فسخ نكاحي. استطعت أن أجد مشتريًا لشقتي في دبي بضعف ثمنها الأصلي مرتين والتي كُنت أحاول بيعها لأشهر بلا نتيجة لأتخلص من كُل ذكرياتي القديمة معه. تلقيت خبر قبول نشر ورقة بحثية لي، وحصلت على أكثر من عرض عمل. أصبحت الفرص تنهمر عليّ وكأن الله يملئني بالعوض الجميل ليسليني به وليشغلني عن التفكير بالماضي.

كان اتخاذ قرار الطلاق بالنسبة لي أصعب بكثير من حدوثه، مروري بعُنق الزجاجة كان أصعب من وجودي خارجها.. أتذكر تلك اللحظة التي وصلتني فيها الرسالة.. أتذكر وقتها وكلماتها وشعوري وإحساسي فيها..

زفرتُ طويلًا عندما حصلت على إشعار فسخ النكاح، وكأن شيئًا ضخمًا وثقيلًا كان جاثمًا على صدري. شعرتُ وكأنني خرجت من أعماق بئر سحيق،

وبأن هواءً نظيفًا ونقيًّا ودافئًا ملأ رئتيّ فأحيا نفسي مرة أُخرى، رغم الألم الذي اعتصر معدتي بقوة وتسارع نبضات قلبي..

أُدرك اليوم بأن نصف المأساة ينتهي حينما تقع! انتهت نصف مأساتي مع سلطان حينما قدرت على فسخ نكاحنا، وقد كان النصف الثاني منها قد وقع قبل ذلك القرار بكل الأحوال..

برغم الألم الكبير الذي مررت به لأكثر من عام أثناء تعاركي مع حيرتي ورغبتي وكرامتي ، بين ما أردته وما أُجبرت عليه، إلا أنني شعرتُ وكأن الانفصال قد ربت على قلبي وكأنه كان انتقامي، وكأنه قد حررني من عبوديتي لتلك العلاقة وتعلقي بذلك الرجل المشوه..
لكن ألما ما ظل عالقًا في حلقي، رغم أنني حرصت على أن أتجاوز الكثير من المشاعر قبل الرحيل.

إلا أن شعوري بالإهانة والذي ظننت أنني سأتخلص منه ما إن أرحل ظل يتضخم بداخلي ولم يصغر برغم تضاؤل مشاعر الشوق والاحتياج التي سعيتُ لأن أتخلص منها قبل الإقدام على الرحيل هذه المرة..

تعلمتُ من تجربتي المرة معك يا عزيز، ألا أرحل ـإن اضطررت للرحيلـ إلا بعدما أقطع نصف رحلتي في التشافي على أقل حال..
صدقني، ليس من السهل على المرأة أن تُغادر شريكها في عش الزواج، فما بالك بامرأة مُتجذرة العاطفة وشديدة التعلق مثلي؟!

لذا بقيتُ معه قرابة العام من بعد اكتشافي لتلك الخيانة، حاولت في بدايتها استيعاب الأمر، جمع شتات روحي، إصلاح ما يمكن إصلاحه.

أقدمت على كُل ما يمكن عليه لأتمكن من التخطي، لكنني عرفت بعد مضي عدة أشهر من المحاولات الصادقة والمساعي الحثيثة أن جزءًا كبيرًا من نفسي قد مات في تلك الزيجة، ولن يقدر على إعادة إحياء ذلك الجزء شيء مهما حاول ومهما ندم قدم لي في حاضر الأيامِ ومُستقبلها البعيد..

آمنت ألا شيء قادر على أن يُعيدني لذلك الزواج ولا لذلك الحبيب/العدو مرة أُخرى..

شعرتُ بأنه قد مات في شعوري تمامًا، تولد حُزن عميق بداخلي تجاه ذلك الفقد،

لكني استسلمت لفكرة موته وانتهائه، لم أقاوم ذلك القدر وحاولت أن أتعلم كيفية الرضا به لأنني لا أملك القدرة على أن أُغيره..

حاولت أن أتعامل مع ذلك الشعور الواقعي جداً بداخلي، مات، انتهى، لن يُعيده إلى حياتي أي شيء مهما أردت ورغبت بإعادته..

أعلنت بداخلي وفاته السرية وعشت لأشهر طويلة حدادي عليه، كان حداداً مؤلما وقاسيًا، كانت الجنازة حاضرة أمامي طول الوقت كشبح ضعيف باهت، تحدثني وتلمسني وتغازلني، وتحاول إقناعي كم تُحبني وكم هي آسفة وكم تغيرت من أجلي فجأة، وبقدر ما كان هذا مُخيفًا بالنسبة لي، بقدر ما كان موجعًا وقاسيًا عليّ..

كانت لدي رغبة ماسة وتوق شديد لمباغتته بالرحيل في محاولة وحيدة بائسة لرد صفعته لي، لكنني لم أقدر على أن أشبهه مثلما لم أقدر يومًا على أن أشبهك..

كُنت أصارحه بشعوري بعدم قدرتي على البقاء رغم محاولاتي المستميتة للاستمرار والتخطي، وكأنني كُنت أُعده للرحيل، وكأنني كنت أحثه للاستعداد لأن المباغتة ليست من عاداتي وشيمي في أغلب الأحوال، أو ربما أردت منه واحتجتُ في لا وعيي أن يثبت تمسكه بي بأي فعل جاد، بأي فعل حقيقي، لكن محاولاته لم تتجاوز إبداء الندم على ما حدث والحلف بالله بعدم تكرار الخيانة، ومئات الوعود الرخيصة بالتغير..

كم كُنت أرغب وأحتاج لأن يفعل أي شيء! لأن يثبت بالأفعال وبالأدلة ما يدفعني للتمسك والبقاء وتصديق ما قد يأتي مثلما دفعني بأفعاله للابتعاد والتخلي والشعور بعدم جدوى البقاء والاستمرار معه..

كُنت بحاجة لأن يدحض الفعل بالفعل، أن يدفع الثمن بنفس العُملة ومن نفس الكيس، لكنه لم يقم بأي شيء مثلما توقعت، لا لأنه غير قادر على القيام بشيء،

بل لأنه كان يشعر في قرارة نفسه بعدم حاجته لبذل أي جهد لاسترادادي. كان يؤمن أنني عائدة لا محالة، وبأن امرأة مُسئولة في أمومتها مُتعلقة به ومُخلصة في حُبها له ولطفليها غير قادرة على أن تُغادرَ منطقة الأُسرة المطمئنة المستقرة، ولن تجازف بشتات طفليها بين والديهما لأي ظرف وأي سبب، خاصة وأنهما ولدان يحتاجان لوجود والدهما وفي بداية عُمريهما وفي غاية التعلق به..

هذا الاعتقاد وهذه الثقة هي ما دفعت سلطان لأن يستهتر بي كزوجة، ولأن يُجازف بزيجتنا بتلك الدناءة. كان مُتكئًا على اضطراري للغفران في حال ما انكشفت ألاعيبه وخياناته، مثلما اتكأت أنت على نفس الإيمان حينما كُنت معك..

ليتني أقدر على مسامحته مثلما قدرت على مسامحتك..
صحيح أن مُسامحتك لم تكن سريعة، لكنني كُنت أعرف أنني سأقدر على أن أُسامحك..

صدقني أحتاج جداً لأن أغفر له أكثر بكثير مما احتجت للغفران معك، لا من أجل طفلي فحسب ولا لكونه والدهما وزوجي السابق والرجل الذي أحببته كثيراً قبل أن يكون زوجي، ولا لأجل العُمر الذي قضيناه معًا في أحضان بعضنا نحلم بالمستقبل ونبني ونخطو خطوات حياتنا بما يتناسب مع وجودنا الدائم معًا، بل لأنني لن أقدر على أن أعيش الحُب مجددًا إن لم أقدر على مسامحته..

لن أقدر على استقبال رجُل مالم أودع الرجل الذي يسكنني وإن اختلفت وتغيرت مشاعري تجاهه.
لن أقدر على طرده من داخلي مالم أسامحه على كُل ما اقترفه في حقي..

أعرف بأن مسامحته لا تعني نسيان ما حدث، وبأنها لا تعني أن أسمح لما حدث في أن يواصل إيلامي وعرقلة حياتي،

لكن ذلك يبدو الآن بعيداً جداً إن لم يَكُن مُستحيلًا بالنسبةِ لي في هذه المرحلة..

أحاول أن أطمئن نفسي أحيانًا في أن الزمن كفيل بأن يجلب المغفرة، وبأن الوقت قادر على أن يوصلني إلى بر التسامح، لكن الزمن بطيء جداً في هذا الجانب. الزمن يختبر صبرنا فيه، كما أن شعوري بالإهانة التي تلقيتها بدونِ أن أستحقها أو أن أتوقعها منه لا يزال يكبر بداخلي وكأنني لا زلتُ طرفًا عالقًا في تلك العلاقة..

شعوري بالغضب تجاه تعديه على كرامتي يجعلني غير قادرة على أن أكون معه في حياد عاطفي. شعوري بأنني ضحيته بدونِ أن يُعاقب على ما اقترفه في حقي لا يزال يخنقني. أناي التي تهشمت وتجرحت وتبعثرت غير قادرة على أن تغفرَ بدونِ رد اعتبار على أقل تقدير..

تعرف أنني لم أكُن لأتركه إلا بعد محاولات طويلة للوصولِ إلى النسيان.

كُنت أناشد النسيان أن يرحمني، أن يمسحَ ذلك الفصل من ذاكرتي فأنساه وأتجاوزه وأكمل حياتي كما كانت قبل تلك الصدمة، لكن النسيان ظل عصيًّا عليَّ ولم يقترب رغم كل محاولاتي في استعطافه واستجدائه..

الحقيقة أن حياتي معه قبل ذلك الحدث لم تَكُن مثالية لأحن إليها أو أتمسك فيها، لكنها كانت هادئة بما يكفي لأن تكون مُستقرة وسعيدة لطفليّ، كان هذا كافيًا ليجعلني سعيدة في تلك الفترة من التخبط الذي كان يعيشه سلطان، والتي كُنت أعتقد أنها مُجرد أزمة من أزمات منتصف العُمر وحالة من الضياع في المساحة الضيقة ما بين الشباب والمشيب، لذا منحته مساحة كبيرة من الحُرية ليستجمع شتاته وغضضت الطرف عن الكثير من التصرفات التي كان اختلال توازنه النفسي واضحًا من خلالها، لأنني لم أتوقع أن تفضي لما أفضت إليه ....

فكيف أُعاقب على تفهمي وأخذل على حسن ظني؟ وكيف سأقدر على أن أسامح؟!

أنا لا زلتُ غاضبة جداً مما فعله سلطان بي، نادمة على كُل ما منحته له، وكارهة لكل ما يُذكرني ويربطني به باستثناء الروحين البريئتين اللتين نجوت بهما من ذلك الوجع..

كُل ما أحتاج إليه الآن هو ألا أشعر تجاهه بشيء، أن أتخلصَ من كُل تلك المشاعر السلبية تجاهه رغم استحقاقه لها، وأن أصلَ إلى سلام الحياد بلا حُب ولا ضغينة ولا ازدراء ولا تقديس.

أن أنفض رماد الخيبات من على جسدي وأنهض وأعدو حتى محطة الحياة التالية كيلا يفوتني ما تبقى من رحلاتها السريعة الخاطفة..

أتدري ما عزائي الوحيد في هذا الأمر؟! أنني أعرف وأُدرك وأؤمن أن كل ألم عظيم يعصف بنا سيطور من أحد جوانب حياتنا لا محالة مثلما قام بتدمير أحد جوانبها..

الألم يُدمرنا ويُعيد بناءنا من جديد، لكننا لا نرغب في خوض غمار هذه التجربة والمرور على جمر الألم حُفاة الأقدام، حتى وإن كان لهذا الألم ثمن ومكافأة نتلقاها بعد نجاتنا من هذه التجربة..

لا أحد يختار أن يعيشَ الألم ولا أحد يود المرور باختبارات الحياة القاسية ولا لمواجهة المجهول اختيارًا.

الإنسان يُدفع لكل هذا قسرًا، يضطر له، يُجبر عليه يا عزيز! وأنا لم أكُن لأختار المجازفة باستقرار حياتي وحياة طفليّ مُقابل أي نعيم قد يتلو تلك التجربة، فكيف استطاع أن يُبادرَ بالمجازفةِ بنا؟!

لطالما تخيلت كيف تكون الليلة المظلمة للروح، بقدرِ الفضول والتساؤل والأسئلة التي لطالما راودتني تجاه هذه الصحوة، بقدر ما فاجأني قدر الألم الذي باغتني أثناء مروري بها، كان مخاضًا روحيًّا عسيرًا، ولدت من بعده روح امرأة أُخرى..

ليس بالضرورة أن يعرف أو يفهم الإنسان معنى تلك الليلة، إلا أنه وحينما يمر بليلة روحهِ المظلمة، يُدرك لا محالة أنه لم يَعُد كما كان، وأن نسخة جديدة لروحه قد بُعثت من جديد بفعلِ الألم وفعل القبول وفعل الصحوة التي باغتت روحه أثناء مخاضها القاسي، من دونِ أن يفهم بالضرورة أين كان وبما مر وإلى أين وصل.. كُل ما قد يفهمه البعض أنه تغير تمامًا بفعل الوجع، وأن روحه لم تَعُد الروح التي كانت عليها..

صدقني، ليلة روحي المظلمة كانت طويلة، طويلة جدًّا.. كانت جاثومًا طويلًا مُستمرًّا ومُمتدًا..

استغرقتُ قرابة العام لتستيقظ روحي من جديد وتنهض من بين رفاتها، ولأن هذا التطهير كان مُنهكًا، ولأن هذه الليلة كانت قاسية للغاية وتشبه احتضار الروح. لم أعُد قادرة على أن أتنازل عما كُنت أتنازل عنه في الماضي. سددتُ ثمن كُل الكارمات التي عشتها في حيوات سابقة، ولم أعد تلك المرأة ولم تعد تلك الروح روحي..

أنت تدري بأنني لطالما حلمتُ بإنجاب الكثيرِ من الأطفال. دائمًا ما كُنت أتخيل بيتي مليء بالكثيرِ منهم. كُنت أشعر دائمًا بأن الأمومة تكملني رغم إيماني التام بأنه ليس من الضرورة أن تُصبح كُل امرأة أمًّا، وليس من المفترض أن تحتاج كُل امرأة لأن تكون أمًّا، لكن للأمومة قيمة كبيرة جدًّا بالنسبة لي.

الأمومة هي أولويتي العظمى في الحياة وشغفي وتوقي الأكبر، وقد كان يعنيني جدًّا أن أنجب أطفالي من رجُل أحبه يحملون ملامحه، فصيلة دمه، اسمه، جيناته، وطبائعه، شيئًا مني والكثير منه..

أنظر اليوم إلى طفليّ فأرى ملامحه البارزة في وجهيهما ولون عينيه في أعينهما، وأفكر في الحُب الكبير جداً الذي أحمله تجاههُما رغم الازدراء الكبير الذي أحمله لوالدهما فيبدو ذلك غريبًا ولا متوقعًا ولا مقبولاً بالنسبة لي..

أعرف أنني كُنت لأُحب أطفالي على كُل حال وبأي حال، لكنني كُنت أحب دائمًا رؤيته في ملامحهما وفي تصرفاتهما وطباعهما، ورغم مقتي له اليوم إلا أن مشاعري لم تؤثر على حُبي لهما رغم أنهما يذكراني فيه طوال الوقت بتفاصيلهما الموروثة الكثيرة..

أفكر فيما لو كُنت قد تزوجتك وأنجبت منك. كيف كُنت لأشعر تجاهك أو تجاه أطفالي! وأحمد الله أنني لم أعلق معك في المأزقِ نفسه لأنني كُنت سأعيش الحكاية ذاتها معك لا محالة بتفاصيل أكثر قسوة..

اليوم أحاولَ يا عزيز أن أتعلم أن أُسلّم برحيل الأشخاص والأشياء. أن أدعها تذهب بدون أن أقاوم رحيلها وذهابها. أن أتعلم كيف أكون مُجرد شاهد على بعضِ الأحداث في حياتي. أن أترك مقعد الفاعل فيها، وأقبل بدور المفعول به بدونِ أدنى مُقاومة.. مُجرد شاهد بلا تحكم ولا دور ولا سيطرة.. بقبول وتوكل ورضا وتسليم وإيمان بوجود خير خفي من هذا الألم وفي هذا الفقد..

أدركت حينما عرفت سلطان كم كان في فقدك خير عظيم بالنسبةِ لي!

عرفتُ حُبًّا جديداً أكثر عمقًا، مكانًا أفضل، طفلين وعائلة.. واليوم أؤمن أن في فقده أيضًا الكثير من الخير المجهول رغم كُل الضرر الذي ألحقه بي وكُل الوجع الذي لا زلتُ أشعر به بسببه..

أُفكر أحيانًا لمَ لا يمر البشر بنفس القدر من الوجع؟! ولمَ لكُل إنسان منّا دروسه الخاصة واختباراته الخاصة ونتائجه الخاصة ومأساته الخاصة التي لم يختر نوعها ولا تفاصيلها ولا توقيتها؟!

كيف تتلاقى أقدار الناس بهذه الدقة؟! كيف ألتقي بمن يُؤذيني فأمتحن من خلاله في أكثر ما أحبه لأتعلم منه كيف لا أتعلق فيه؟!

وكيف أؤذي شخصًا آخر فيتعلم من خلالي درسه الخاص بطريقة مُختلفة ومنهج آخر وألم خاص..

لمَ نؤذي ونؤذى لنُعلم ونتعلم بأقسى السُبل وأصعب الطرق؟! ولمَ نضطر للمرور بنفس الاختبارات وتتكرر علينا نفس النُسخ مع أشخاص آخرين بأسماء وملامح وخلفيات مختلفة أكثر من مرة؟!

أعرف أن أول السبل إلى فهم المعنى من كُل هذا هو في أن أحاول أن أتعلم الرأفة في نفسي، أن أحن عليها وأرحمها وأتفهم أخطاءها وأسامحها عليها، لأنني أعرف كم لمتها وكم عاملتها طويلًا بقسوة بسبب أذى الآخرين لها في الحُب..

دفعتها لأن تتحمل ما لا يُحتمل، وأن تقبل بما لا يُقبل، وأن ترضى بأقل ما تستحق كي تحافظ على الحُب الذي كانت تعتقد أنه مُناسب لها..

أنّبت نفسي في أوقات كثيرة على أخطاء دفعت ثمنها بدون أن أقترفها، وحمّلت روحي عبء تحمل أوضاع لا تُحتمل، والصبر على أشخاص لم يَكُن يجدر بي الصبر عليهم وتحملهم. كان كل هذا لأنني كُنت أخاف من فكرة البقاء وحيدة رغم أن في الحياة الكثير والكثير من الخيارات والفرص المناسبة والمتاحة لكل إنسان منا..

كان من المفترض أن أعاملَ الحياة بشكل مُختلف تمامًا عن الشكل الذي تعاملتُ معها فيه، أن أتخلى عن التمسك بأي فكرة أو شخص أو مكان أو فرصة كان يؤذيني التمسك بها..

أن أتخلى عن صورة الحب المثالي والحياة الكاملة المنشودة.. وأن أرضى بتجربة الخيارات الأُخرى التي كانت مُتاحة لي حتى وإن لم تكن تشبه أحلامي، وإن اختلفت عن الصورة الوحيدة للحياة التي كُنت أنشدها وأسعى لها وأبتغيها..
كان من المفترض أن أقبل وأؤمن وأصدق ألا وجود لحُب وحيد في هذه الحياة، بأن الحب لا ينفد برحيل شخص واحد أو بنهاية علاقة، بألا أبدية في الحُب، ليس في كُل الأحوال كما كُنت أعتقد..

أظنُ أن أحد أسباب صدماتي في الحب كانت بسبب إيماني بأبدية الحُب ونقائه، وبتوأمية الروح، وبقدرة الحُب على الصمود والانتصار مهما كانت الظروف والأحوال.

كُنت أؤمن بأن العشاق الحقيقين لا يتغيرون ولا يخذلون ولا يخونون، لذا كانت صدماتي كبيرة وكان تجاوزها صعبًا جدًّا عليّ.

كبرتُ كثيرًا كثيرًا يا عزيز! لم أعُد تلك المراهقة التي عرفتك، أصبحتُ أكثر من راشدة، وأظن أنني انتصفت في العُمر، لكنني لا زلتُ أخذل في الحُب كما كُنت، بنفس القوة وذات الحدة وكأنني لا زلت تلك الفتاة الغريرة الشابة..

احتفلتُ بعيد ميلادي الرابع والثلاثين قبل أيام. الحقيقة أنني لم أحتفل هذه المرة. لم يَكُن هُناك ما يغريني ولا يدعوني لأن أحتفل.. أنا التي لم تفوت الاحتفال بأي عيد من أعياد ميلادها منذ الطفولة مهما كانت أوضاعها خلاله..

دائمًا ما كُنت أشعر بأن ذكرى مولدنا تستحق الاحتفال لا لأجلنا فقط، بل تقديرًا للأمهاتِ اللاتي أنجبننا والحياة التي لا زالت تبقينا على قيدها..

لم أحتفل هذه المرة بعيد ميلادي، لا لأن وقته قد حل وأنا حزينة جداً فقط، بل لأنني شعرت وكأنني قد بلغت الرابعة والثلاثين فجأة..

صدقني لا أعرف كيف مرت العشرة أعوام الماضية بلمح البصر. كأن العُمر الذي مضى بعدما تركتك وأثناء زواجي من سلطان قد مضى وأنا غائبة أو ربما مغيبة في معظمه..

أصبحت مُعظم ذكرياتي فيه باهتة وضبابية تشبه الأحلام القديمة التي لا نتذكر سوى ملامح خاطفة منها، رغم أنني عشتها بكُل ذرة فيها، وُكنت حاضرة الذهن ويقظة فيها بكل جوارحي، إلا أن حيلة لا وعيي الدفاعية المعتادة هي في أن تمسح جزءاً كبيراً من الذكريات حينما يحضر الألم، لذا غاب جزء كبير من ذكريات سنواتي الماضية ولم يبقَ حاضراً فيها سوى ذكرياتي مع ولديّ..

أتظن بأن الأمر كان مُختلفًا في حكايتي معك؟!

أعرف أن أناك المغرورة لن تُصدقني لكنني نسيت فعلًا جزءًا كبيرًا من أجزاءِ حكايتنا، الكثير من المواقف والكثيرِ من الأحداث والكثيرِ من الأيام.. والكثيرِ من الذكريات سقطت في فوهة النسيان فباتت بعيدة وقديمة وسرابية جدًّا بالنسبةِ لي..

لا أعرف إن كُنت قد ساهمت بغيابِ تلك الذكريات من خلالِ تجاهلي لها ومحاولاتي لتناسيها، لكن عُمرًا طويلًا وسنواتٍ كثيرة قضيناها معًا لم يبقَ من ذكرياتها سوى القليل، وإن بقي منها الكثير والكثير من المشاعر..

أمن الغريب أن تظل المشاعر رغم غياب الذكريات يا عزيز؟!
ربما لم تبقَ بالشكل الذي كانت عليه، لكني لا زلتُ أحمل مشاعر ودودة وطيبة تجاهك، مشاعر مُختلفة عما كننت في الماضي لك، لكنها حقيقية وصادقة ومُحبة رغم كُل ما جرى بيننا..

اليوم أنا لا أعرف يا عزيز طبيعة وماهية مشاعرك تجاهي الآن، والحقيقة أنني لا أكترث لمعرفتها أو فهمها في هذا الوقت وبعد هذه التجربة، لكنني أستطيع أن أتخيلها بناء على معرفتي بك وبطبيعتك وعلى ما أقرأه في حساباتك على وسائل التواصل الاجتماعي حينما تترك لي بين الحين والآخر بعض التلميحات التي لا يفهمها سوانا..

أتجاهل دومًا تلميحاتك وتغريداتك، لكنك تعرف أن معانيها تصل إليَّ بوضوح رغم تجاهلي المتعمد لها في مُعظم الأوقات..

قرأت تغريدات كثيرة عن والدك في اليوم الذي توفي فيه مُصابًا بكورونا خلال ذروةِ ظهورها. لم تكُن لتمر وفاته مرور الكرام، لا لمجرد كونه علمًا من أعلام مُجتمعنا، بل لأن وفاته مصابًا بالفايروس في ذلك الوقت المبكر والحرج من انتشار الوباء كان حدثًا مُحزنًا ومُخيفًا جدًّا لأي أحد يعرفه أو لا يعرفه، فما بالك بالنسبة لي؟!

غردتُ يومها من دونِ أن أذكر أو أشير إلى أي اسم: اللهم اغفر وارحم الرجل الطيب الذي غادرنا هذه الليلة. اللهم تقبله شهيداً وكن مع أهله وذويه وارزقهم الصبر والسلوان. لتصلني "آمينك" سريعًا من خلالِ تسجيل إعجابك بتغريدتي..

كُنت أتوقع أن ترد بـ "آمين" على أقل تقدير لتبرهن لي على أن تغريدتي قد وصلت إليك، لكنك يومها أُعجبت بتغريدتي لا أقل ولا أكثر، فعرفت أن حُزنك أكبر بكثيرِ من أن يعبر عنه أو أن يوصف..

كُنت أعرف أنك قد عُدت منذ بداية الجائحة إلى الرياض... تذكر دائمًا أنك في الرياض حينما تعود إليها وكأنك تُعدّني لأي صدفة قد تجمعنا على قارعة طريق ما أو في مكانِ ما.

برأيك أي مكان قد يجمعنا في مدينة مكتظة كالرياض؟! أنا الأم المسئولة عن طفلين وأنت العازب الأربعيني بلا عمل ولا عائلة؟! أي مكان تظن بأنه قد يجمع مثلينا؟! وكم كانت لتكون هذه الصدفة غريبة ومُربكة ومُختلطة المشاعر؟!

أُعرف بأن هذه الأسئلة تدور في رأسك وبأنك قد فكرت في كُل هذه الاحتمالات مثلما فكرتُ أنا فيها لا محالة..

أشعر أنني بتُّ أفهمك اليوم كثيرًا، أكثر بكثير مما كُنت أفعل حينما كُنت معك. بتَّ واضحًا بالنسبةِ لي في البُعد أكثر مما كُنت أثناء وجودك..

ربما نضجتُ أنا كثيرًا، وأصبحتُ أفهم أنماط البشر بعدما يدفعونني للابتعاد عنهم وتزال من على عيني عصابة الحُب القاتمة..

في الحُب يغيب منطقي ويتواضع حدسي وتطغى مشاعري على أي فكرة أو ملاحظة أو اعتقاد، لكنني حينما أبتعد وبعدما تنتهي العلاقة أرى كُل شيء بوضوح تام، تتجلى شخصيات من كُنت أُحبهم لدرجةِ أن يبدوا لي كأشخاص آخرين، أشخاص لا يشبهون حقيقتهم التي قد يراها ويعرفها أي أحد سواي..

المشكلة لم تَكُن فيك وفيه فقط، نظرتي الحالمة وتنزيهي لمن أُحبهم كانت السبب في خلق صور غير حقيقة وتوقعات غير منطقية لأشخاص بمثل شخصيتك وبمثلِ شخصيته..

لم تَكونا يومًا الرجلين اللذين اعتقدتهما وقبلت بهما. كُنتما مُختلفين تمامًا عن الصورة التي ظننتها،
لذا صُدمتُ كثيرًا وخُذلت كثيرًا وخابت كُل ظنوني وتوقعاتي فيك وفيه..

أتصور أحيانًا بأن جزءًا كبيرًا مما لا يزال يعذبني بك بسبب أنني لم أواجهك بما شعرت به حينما خنتني..

لم أواجهك كما ينبغي عليَّ أن أفعل.

ابتلعتُ الوجع وحبست الخيبة بداخلي، وحاولت أن أقفز تلك الفجوة وأمضي بدونِ أن أخبرك عما هُدم وتصدع بي بسبب تلك الخيانة. لذا لم تُردم تلك الفجوة السحيقة بداخلي وظلت فارغة عميقة وحالكة، تسقط فيها بين الحينِ والآخر بعض المواقف والمشاعر التي تجعل النيران فيها تستعر كفوهة بركان رغم مضي كُل هذه السنين. لذا حينما خانني سلطان ثار ذلك البركان، وتدفقت حممه الماضية والحاضرة ولم يقدر على إخماد نيرانه أي وعد أو عوض..

أعرف أن مواجهتك بمشاعري تجاه ما حدث لن تُغير فيك أي شيء. لن تندم ولن تحزن ولن تخاف من كارما الظلم والخيانة، لأنك لو كُنت تؤمن بها وتخشاها لما خنت، لكنها ستُغير بي الكثير من المشاعر، ستُطلق تلك الضحية المحبوسة بداخلي وتمنحها الحرية من جديد..

صدقني، عندما يخون الإنسان إنسانًا، فلا يُحل الأمر بالرحيل، لا يُطمس ولا يتلاشى ولا ينتهي حتى بعدما يختار المغدور/ المخذول الرحيل، وحتى بعدما يجد ضالته في يوم ما مع إنسان آخر، سيظل ذلك الجرح نازفًا في أعماقه، شعوره بالظلم والإهانة لن يقدر على أن يمحوه أي شيء، ولن يقدر أحد على أن يثد تلك الحادثة وإن كان قد وصل إلى أعلى درجات الوعي والإدراك. سيظل ذلك الألم موشومًا في أفئدتنا نحن المغدورين والمخدوعين رغم وعينا بما خلف تلك الخيانة وبأسبابِ وقوعها، والتي لا تتعلق إلا بالطرف الثالث الدخيل والرخيص وبالخائن نفسه واضطراباته الداخلية وحاجته الماسة للشعور بالقبول من أكبر عدد ممكن من الجنس الآخر، والنابعة من ضعف ثقته بنفسه وشعوره الداخلي بالرفض والنقص..

لو تدري كم حاولت ولفترة طويلة أن أُقنع نفسي بأنك خنتني لأنك لم تَكُن مُلتزمًا معي بأي رباط مُقدس لأدعك تُرحل من داخلي بسلام.

ربما لذا سامحتك وتركتك ومضيت رغم إيماني بأن الحُب علاقة سامية يتوجب فيها الإخلاص والالتزام والصدق والوفاء..

سأقبل فكرة أنك خنتني لأنك لم تَكُن مرتبطًا بشكل رسمي وعقد شرعي معي، لكن لمَ خانني هو؟!

لمَ خانني وبيننا أغلظ المواثيق عند الله؟ أكثر العقود قدسية وطهارة! فكيف أسامحه بعدما دنسها؟! وكيف اخترت الزواج من رجُل خائن للعهد؟! وقبلت بأن يكون والد أطفالي هذا القدوة؟!

حينما تتعرض المرأة للخيانة في علاقة مُقدسة كالزواج تدخل في دوامة من المشاعر المتطرفة، لتصارع رغبات متناقضة ما بين الواجب والمرغوب به، ما بين المنطقي والمختلق، ما بين الشك والرغبة بالتصديق، ما بين ما تريده وما أراده هو وفعله، خاصة عندما يكون هُناك أطفال يربطونها بشريكها، وحين يكون الفعل صادمًا والحُب موجودًا والثقة وحسن الظن سيدا العلاقة..

أتعرف!

بقدرِ ما توسل لي سلطان لأغفر له، بقدرِ ما حاولت وجاهدت فعلًا لأن أغفر..

كُنت أعي تمامًا أن أمثاله وأمثالك لا يستحقون المغفرة ولا الفرص الثانية، وأنني لا أستحق الاستمرار في مثل هذه العلاقات الجائرة غير متكافئة القيم والمبادئ، لكنني كُنت أحتاج لأن أُلملم بعثرة مشاعري قبل الرحيل. أردت أن أمنح ولديّ فرصة أن أتشافى فنبقى معه كما كُنا معه، عائلة صغيرة وسعيدة يحكم الحب والإخلاص روابطها، أو أن أجمع شتاتي فأرحل بهما وأنا مُستعدة للوصولِ بهما إلى بر الأمان بدونِ أن يرافقنا والدهما هذه المرة إلى تلك الوجهة..
كُنت أحاول أن أفصل ما بين علاقتي بسلطان وعلاقته بالولدين، أن أجعل الألم والخيار الذي أختاره أكثر منطقية..

أنا حاولت تذكير نفسي طوال الوقت أنه خانني أنا ولم يخنهما، حتى وإن دمر بخيانته لي استقرار طفولتهما، إلى أن قال لي مُبتزًّا وهو يحاول إبقائي: ماذا عن الولدين يا جُمانة؟! فكري بهما! أتُدركين ما سيفعله طلاقنا بهما؟!

وبقدرِ ما بدت هذه الجملة ظاهريًّا أبوية ومراعية ومُحبة، بقدرِ ما بدت لي حقيقتها لئيمة وخبيثة وأنانية وشريرة وجاحدة ومُبتزة..

نظرتُ إليه بخذلان جديد وقد تجلى لي حجم القسوة واللا مبالاة التي كانت تعتمل بداخله تجاهي وتجاه ما اقترفه بحقي، هو الذي تخيل أنه قادر على أن يحملني ذنب شتات الطفلين وزعزعة أمانهما بانفصالنا، مُتناسيًا ومُتجاهلًا وناكرًا أن خيانته لأسرتنا كانت السبب في تلك الفرقة وذلك الشتات..

أراد أن يُسقط عليَّ ذلك الذنب كعادته كما اعتاد أن يفعل بنرجسيته ولؤمه ومكره وإدراكه التام بأنهما نقطة ضعفي في هذه الحياة..

حينها أدركت تمامًا أن رجُلًا بهذا القبح وهذا الخبث لن يقدر على أن يتغير ولن يستحق الاستمرار مع امرأة بنقائي بعد ذلك اليوم..

أدركت أن رجُلًا مثله يستحق أن يكون فعلًا مع أي امرأة من اللاتي خانني معهن..
امرأة ناقصة إلى درجة أن تقبل بأن تكون طرفًا ثالثًا في علاقة مع رجُلٍ متزوج وأب لأطفال من امرأة أُخرى. امرأة لا تحترم نفسها ترضى بأن تكون مع رجُل لا يفتخر بالمجاهرة بعلاقتهِ فيها، رجل يتنصل من معرفتهِ بها ويُنكرها
بمُجرد أن يعرفَ أحد عن هذه العلاقة.. امرأة لصة ظلامية تُشبهه، تعيشُ حبها معه في الخفاء، تُرعبها الشمس ويقتلها النور..

أنا لم أعد مثل ما كُنت يا عزيز.

لم أعد قادرة على أن أتنازلَ أكثر مما تنازلت ولا أن أتجاهل مثلما تجاهلت. صدقني حاولت كثيرًا أن أفعل هذه المرة من أجلِ طفليّ، لكني كُنت أعرف أنني سأظل حزينة

مكسورة الفؤاد إن بقيت في هذه العلاقة وإن استمرت هذه الزيجة، وهذا ما كان سينعكس على علاقتي بطفليّ وحياتي معهما. لذا استجمعتُ قواي لأغادر وأسحب قدميّ من داخل ذلك الوحل الذي كان يجرني لداخله بقوة وعنف، وقررتُ ألا أفكر إلا بالنجاة بنفسي مهما فقدت بداخل ذلك الوحل وخسرت فيه من أجزاء مني..

بقدرِ ما كان قراري بطيئًا مُتأنيًا، بقدرِ ما صدم هذا القرار والديّ وعائلتي الذين لطالما ظنوا بأن سلطان آخر الرجال المحترمين..

كُنت دائمًا ما أبعد عائلتي عن أي خلاف أو أي مشكلة أو خيبة لي معه، حتى في أزمتنا الأخيرة والقاصمة والتي بقيتُ أنازع فيها لأشهرٍ طويلة، لم أنقل ذلك الصراع ولا ذلك الألم لأحدٍ منهم..

قررتُ أن أغادر منزل الزوجية. ابتعتُ منزلًا صغيرًا بمدخراتي التي جمعتها طوال سنوات عملي، وبعتُ كل ما استثمرته طول السنوات الماضية. هيأت طفليّ لذلك الانتقال وذلك الفراق، وانتقلتُ للعيشِ في منزلي الجديد بعد أن رفعت عليه قضية لفسخ النكاح، والتي أصررت أن ينتهي زواجنا من خلالها لا من خلال الطلاق، كي أذكر ويتذكر دائمًا أنني من قرر إنهاء الزواج، فانتهى الأمر بهدوء وبسلام بدون أن أستشير أحدًا من العائلة أو الأصدقاء في قراري، كيلا يؤثر أحد منهم على ما نويته وقررته..

أدركت حينما أصبحتُ حُرة بأنني لطالما كُنت أخشى شعور الحُرية.

دائمًا ما كُنت أتوق لأن أكون شريكًا دائمًا، طرفًا ثابتًا في علاقة حُب أبدية، زواج خالد، زوج مُحب ومُخلص، أطفال سعداء وأُسرة مترابطة.

الغريب أن شعور الانفصال كان مُريحًا ومؤلمًا في الوقتِ نفسه، رغم الخوف الذي كُنت أشعر به قبل اتخاذ القرار وأثناء عملية انفصالي ورغم استمراره بعده..

صحيح أنني بقيتُ مُتألمة وخائفة، لكنني أصبحتُ مُرتاحة البال بعد الانفصال.

شعرتُ أنني قد انتقمتُ وحققت العدالة لنفسي في الرحيل. ربما لم تكن العدالة التي كُنت أحتاجها لأتشافى، لكنها كانت الانتقام الوحيد الذي كانت تسمح لي أخلاقي بالإقدامِ عليه..

شعرتُ أن صخرة ضخمة أُزيحت من فوق صدري، وبأنني بتُّ حُرة طليقة، لا يكبلني أي شيء..

صحيح أنني قد خرجتُ من تلك العلاقة ومشاعر المرارة تملأني، وشعوري بالظلم والقهر لا يزال موجودًا، لكن مُغادرة ذلك البيت بما فيه من ذكريات كان مُريحًا بالنسبة لي. كُنت أعرف أن شعور البداية الجديدة في مكان جديد بلا ذكرى تربطني بالمكان ومن كان يشاركني الحُب فيه ستجعل الانفصال أخف وطأة وستجعل البداية حقيقية مهما كانت صعبة.

رغم أن سلطان وافق في البداية على أن يغادر هو منزل الزوجية وعلى أن يترك المنزل لي وللولدين بناء على طلبي، لأنني أردت ألا يكون التغيير عليهما كبيرًا وصادمًا، إلا أنني وبعد طول تفكير أدركت أننا لا نبدأ بداية جديدة في المكان نفسه. كُنت قد تعلمتُ هذا الدرس من تجربتي المريرة معك، ففي كُل مرة كنت أغادرك فيه كُنت أعود لنفس النقطة، لأنني لم أكُن قد غادرت فعليًّا منطقة الذكريات..

طللتُ عالقة في نفس المكان أراقب التفاصيل وأسترجع الذكرى، لذا لم أتمكن من أن أبدأ صفحة جديدة فعليًّا إلا بعدما غادرت المكان الذي كان يجمعني بك وانتقلت إلى بلد آخر ومكان آخر بعيداً عنك.

معه لم أقدر على أن أُغادر البلاد. فكرتُ في أن أنتقل إلى مدينة أُخرى لأنني كُنت أعرف أن خبرتي ومؤهلاتي ستساعدني في الحصول على أي عمل في أي مدينة من المدن السعودية، وقد كُنت معتادة على العيش بعيداً عن أهلي في كل الأحوال، لكنني لم أَكُن راغبة ولا قادرة على أن أجتث الولدين من والدهما. كان الانفصال صعبًا بالنسبة لهما رغم طول فترة تهيئتهما للأمر، وكنت أعرف بأن الابتعاد عنه والعيش في مدينة ثانية لم يَكُن من مصلحتهما أبداً. لذا آثرت البقاء في الرياض التي كُنت أحبها وأنتمي إليها، والتي كُنت أؤمن في قدرتها على تطبيبِ جراحي..

أبداً. لذا آثرت البقاء في الرياض التي كُنت أحبها وأنتمي إليها، والتي كُنت أؤمن في قدرتها على تطبيبِ جراحي..

تخيل أنني قرأت تغريدتك التي ذكرت فيها أنك قد عُدت إلى الرياض في بداية الجائحة في نفس اليوم الذي حصلتُ فيه على فسخِ عقد زواجي!

كانت الصدفة غريبة والتوقيت صادمًا بالنسبة لي، لكنني لم أرغب بمحاولة ربط الأحداث بأي إشارات قدرية

أو ربما رغبات لا واعية كما كُنت أفعل دائمًا في الماضي..

كُنت قد قررت من بعدِ صدمتي في سلطان أن أتخلى عن أية أفكار حالمة وعن أية تفسيرات غير
واقعية، ألا أحمل الأمور أكثر ما تحتمل. أنا لا أفترض أي فرضيات. أن أعود لأرض الواقع والحقائق المادية الصلبة، لكنني كُنت قد قررتُ أيضًا أن أؤمن بحدسي الذي لطالما كان حادًّا وقويًّا،

والذي تجاهلته كثيرًا خوفًا من أن يُصيب فأُخذل وأُصدم وأتألم..

ولأن هذا التجاهل دائمًا ما كان يجعل صدماتي أكبر والخذلان ضخمًا والألم عميقًا لدرجة لا توصف.

قررتُ أن أعود للوثوق بحدسي الذي لم تخذلني مصداقيته يومًا رغم تكذيبي المستمر له..

حدسي ينبئني هذه المرة بأن عودتك ستكون نهائية، وأننا دروبنا ستلتقي يومًا وإن لم نسعَ لذلك أو نرغب به..

غريبة هي النهايات التي لم نتوقعها، وغريبة هي البدايات التي لم نتوقع أن تُفضي إليها.. لم أشعر بالراحة تجاه سلطان في أولِ مرة قابلته فيها. توجستُ منه كثيرًا وعاملته في مُنتهى الحذر كعادتي مع الرجالِ من قبلك ومن بعدك..

أُفكر أحيانًا في فكرة "الحُب منذ النظرة الأولى"، التي أقرأ وأسمع عنها من خلالِ تجارب النساء من حولي، فتبدو لي هذه النظرة غير منطقية وشبه مُستحيلة رغم أنك لطالما حاولت إقناعي بأنك قد أحببتني منذ اللحظة الأولى وعند النظرة الأولى..

لا زلتُ أذكر مشاعري تجاهك في لقائنا الأول. أذكر تلك الريبة التي انتابتني تجاهك، وتلك الغرابة التي بدوت عليها والتي دفعني فضولي تجاه تفاصيلها لأن أتجاهل مشاعر الارتياب حولها..

لذا يبدو لي الآن بأن إحساسي الأول دائمًا هو الأصدق..
إحساسي تجاهك وإحساسي تجاهه!
ألا زلت تذكر لقاءنا الأول يا عزيز؟ أم طوى تفاصيله الزمن كما طوى الزمن الكثير من الذكريات؟!
أذكر كم كُنت مستفزًا لي في ذلك اللقاء! بينما كان سلطان لطيفًا وودودًا في أولِ مرة قابلته فيها، للدرجة لم أَكُن مستعدة لها على الإطلاق! ربما لذا توجست منه مثلما توجست منك!
كُنت قد انتقلت للتو بُحزني إلى نيويورك، لمكانٍ جديدٍ تمامًا عليَّ لا أعرف فيه أحدًا ولا أُحب فيه أحدًا..
استأجرت حينها شقة في upper east side والتي تعتبر من أغلى المناطق في نيويورك وأكثرها أمانًا خوفًا من المدينة الجديدة التي كان يقلقني أحيانًا ما أسمعه عنها، وبينما كُنت أحمل بعض المستلزمات للشقة الجديدة فإذا بأحد يسألني بالإنجليزية إن كُنت أحتاج إلى المساعدة!

ألتفتُ إليه فإذا به يقف بعينين عسليتين في أسفلِ سلم الشقة القصير، ويداه في جيبي معطفه باسترخاء ويبراءة..
لم أكُن بحاجة لمجهود لأميز ملامحه العربية، مثلما لم يَكُن بحاجة لأن يفعل معي بطبيعةِ الحال.
أجبته بالعربية: شكرًا جزيلًا.

صعد السلم وحمل الصندوق من بين يدي وقال: عنكِ!

دخل إلى العمارة قبلي وسألني وهو يسبقني: شقة الدور الثاني؟!

ـ صحيح.

ـ من زمان في نيويورك؟

ـ وصلت لها من يومين.

ـ أوه! الحمد لله على السلامة. نورتِ!

ـ الله يسلمك.

ـ أنا هُنا من سنتين تقريبًا.

ـ أهلًا وسهلًا.

ـ من المنطقة الشرقية؟

ـ الرياض.

وضع الصندوق أمام باب الشقة وقال: حي الله أهل الرياض! أنا أخوك سلطان من الرياض أيضًا. شقتي فوق شقتك في الدور الثالث. سجلي رقمي عندك لأي طارئ لا سمح الله أو لو احتجتِ لأي مُساعدة. أخوك دائماً موجود..

مددتُ له بهاتفي مُتخلية عن حذري رغم التوجس وقُلت: تسلم!

سجل رقمه واتصل منه على هاتفه: اتصلت على رقمي كي أعرف رقمك لو اتصلتِ. الاسم الكريم؟

ـ شكرًا. اسمي جمانة..

ـ عاشت الأسامي جُمانة. تامرين على شيء؟!

ـ ما يامر عليك علو. شكرًا ما قصرت.

ـ تصبحين على خير.

دخلت إلى شقتي وصعد هو إلى شقته. فرغتُ حاجياتي في خزائن المطبخ وأنا أُفكر هل أنا مُباركة كون جاري الجديد سعوديًا في مدينة مُخيفة كنيويورك مثلما أُسمع ويشاع عنها؟!

وجدت اتصالاً فائتًا من والدتي لم انتبه له أثناء ترتيبي للمطبخ. عُدت للاتصال بها لأجده قد سجل اسمه باسم "الجار الطيب سلطان".

الانطباع الأول لطيف، ودود، وظريف!

رغم التوجس ...

لم تمضِ ثلاثة أشهر على تعارفي مع سلطان حتى تقدم بطلبِ الزواج مني..

لم يَكُن طلبه مُباغتًا بالنسبةِ لي، فمن بعد بضعة أسابيع على تعارفنا وحينما بدأت تظهر بوادر العاطفة الأولى والاهتمام الكبير وشيء من الاشتياق، أبدى بوضوح اهتمامه ورغبته في أن تفضي علاقتنا إلى الزواج. لا زلت أذكر صوته وهو يضغط على حروفه قائلًا: جمانة، أنا فعلًا أسعى لأن تكون علاقتنا علاقة جادة.

ورغم أن معنى العلاقة الجادة كان واضحًا ومُباشرًا ومفهومًا لأي أحد، إلا أنني تشككتُ كثيرًا في معناها حينذاك، ربما لأنك شوهت بداخلي شكل العلاقات فأصبحتُ أتشكك في أي علاقة مهما أبدى الطرف الثاني فيها من وضوح ومباشرة، وربما لأن شيئًا ما بداخلي لم يَكُن مستعدًّا لتلك العلاقة الجادة في تلك الفترة..

كانت جراحي لا تزال رطبة رغم حاجتي الكبيرة لعيش الحب من جديد وإيجاد شخص أطوي بمعيتهِ ومن أجله صفحة الماضي الحزين معك، إلا أنني لم أكُن مستعدة بعد لخوض تجربة الزواج بهذه السرعة.

كُنت محتاجة لأن أتشافى تمامًا وكليًّا منك، وأن أُحب جدًّا، وأطمئن جدًّا، وأستكين جدًّا لرجُل آخر، لدرجة أن أتوق لعيشِ المستقبل معه ومشاركته الحياة والسنوات والأطفال الذين كُنت أتوق لأن يكونوا في مستقبل حياتي القريب..

تحفظت على طلب سلطان بالزواج في البداية، وطلبت منه أن يمنحني بعض الوقت للتأكد من مشاعري ومن استعدادي التام لمثل هذه الخطوة، إلا أنني وجدتُ نفسي أُحبه بسرعة عكس ما توقعت، وشيئًا فشيئًا وجدتك تُغادر وتنسل من أحلامي..

لم أعد أحلم بك عندما أنام، ولم أعد أنظر إلى رقمك في هاتفي بين الحين والحين حتى وجدتني فجأة أحذف رقمك من قائمة الاتصال في هاتفي بحزم وبلا تردد.

مر عام كامل وسريع على علاقتي بسلطان، غبتَ عني تمامًا خلاله..

عشتُ معه فيه أجمل أيام الطمأنينة. شعرتُ معه بأن عوض الله أجمل مما نتوقع، وأن وعد الله للصابرين حق، لكن شيئًا ما عاد وانتابني ما إن طلب مني الزواج مجددًا..

كان حازمًا في تلك المرة، لحوحًا في طلبه. قال لي بأن من الأفضل لكلينا أن ننهي علاقتنا إن لم أَكُن قد توصلت إلى يقين تجاه تلك العلاقة، وإن لم أكُن قد أصبحت مستعدة لمشاركته الحياة.

طلبت منه أن يمنحني وقتًا لأفكر مرة أُخرى. ليلة واحدة أرد له فيها على طلبه، إما أن يسافر إلى أهلي ليتقدم بشكل رسمي لخطبتي، وإما أن ننهي علاقتنا ويمضي كُل واحد منا في دربه بعيدًا عن الآخر.

انتابتني الكثير من المشاعرِ تلك الليلة. كُنت قد أحببت سلطان حقًّا، وقد كان يُغريني في تلك الفترة وذلك العُمر أن أتزوج وأن أشارك رجلًا أحبه العُمر والحياة، لكنني خفت كثيرًا من أن أدعكَ ترحل مني بشكل نهائي وتام وقاطع. شيء ما بداخلي كان مُتمسكًا بذلك الألم وتلك الذكرى التي اعتادها..

بقيتُ أتقلب في فراشي أُفكر طوال الليل، حتى جاءتني رسالة من سلطان صارمة وحاسمة ولحوحة: ماذا قررتِ يا جُمانة؟!

وجدتني أتصل برقمك المحذوف والذي لا زلتُ أحفظه وأتذكره. لم أكُن أعرف لمَ أتصل بك وما الذي سأقوله لك، لكنني كُنت بحاجة ماسة لأن أسمع صوتك..

جاءني صوتك كما كان، عميقًا مُتعبًا دافئًا ولا مُباليًا..

ظللتُ صامتة محبوسة الأنفاس. كُنت أُدرك أنك تعرف أنني المتصلة رغم جهلك برقمي الأمريكي. ظللتُ صامتةً على الطرف الآخر أسمع صوت أنفاسك المتوترة التي كُنت تحاول أن تحبسها. احتجتُ لأن تُناديني، أن تقول شيئًا، أن تُبقيني بمُجرد أن تنطق باسمي، لكنك لم تنبس بحرف وبقيت معي على الخط تبادلني الصمت. وصلتني رسالة وأنا أمسح دموعي مُنصتة لصمتك، فإذا هي من سلطان: لم تردي عليّ! ماذا قررتِ؟!

زفرتُ بقوة مودعة كُل ذكرياتي وأيامي وأحلامي القديمة معك وأنهيت الاتصال.. نهائيًّا هذه المرة!

بكيتُ كثيرًا، كثيرًا.. كما لم أبكِ منذ أن غادرتك. كُنت أنظر إلى شاشةِ هاتفي بانتظار أن تعاود الاتصال، لكنك لم تتصل ولم تُرسل ولم تسترجعني!

سمعتُ صوت رسالة وأنا أبكي في سريري. سحبت الهاتف بسرعة من تحت وسادتي وأنا على يقين من أنك المرسل، لكنه كان سلطان مرة أُخرى يستحثني فيها للرد..

"جمانة.. أُحبكِ كثيرًا. أرجوكِ شاركيني الحياة!"

كتبت له بأصابع ترتجف ومن بين دموعي: أُحبك أيضًا، وأُريد أن أشاركك الحياة! أنا مستعدة!

أرسلتها وأغلقت هاتفي كيلا يتصل. كُنت مُتألمة وموجوعة لوداعك. ظللتُ أبكيك طوال الليل، أودعك وأكفنك بداخلي.. وأتجاوزك للرجل الآخر والحُب الآخر والحياة الأُخرى التي اخترت خوضها بعد طول صبر وانتظار..
بقدرِ ما كُنت حزينة لاختياري الانتهاء منك، بقدرِ ما كُنت مرتاحة ومتشوقة للتجربة الجديدة وتكوين أُسرة مع سلطان..

انشغلت في الأسابيع اللاحقة معه في التجهيز لعش الزوجية الجديد والاستعداد للحياة الجديدة، حين جاءني اتصالك مُباغتًا بعد بضعةِ أسابيع من اتصالي بك.

وجدتُ رقمك فجأة على شاشةِ هاتفي! نظرتُ إلى خاتم الخطوبة الرقيق في إصبعي وأخذتُ أُفكر كم أنت مُتأخر كعادتك!

دائمًا ما كُنت تأتي في الوقت الضائع، فيما بعد النهاية، ورغم ذلك دائمًا ما كُنت أعود حيثُ أنت، لأبتدئ معك من قلب النهاية، لكنني لم أفعل تلك المرة. كُنت أعرف أنني مُستعدة فعلًا لأن أعيش مع سلطان بسعادة، ولأن أحبه أكثر مما أحببته وأكثر مما أحببتك، لذا لم أرد على اتصالك، وأنا على يقين بأن رجُلًا بغرورك لن يُعاود المبادرة والاتصال مرة أُخرى..

لم تخذلني تلك المرة، ولم تتصل بي من جديد...

تزوجت!

بسهولة وسرعة وتيسير لم أتخيله يومًا، وكأن كُل شيء وكُل أحد قد بارك زواجنا بما فيهم أنت..

دائمًا ما كُنت أتخيل بأنني سأحزن كثيرًا يوم أزف إلى غيرك، لكنني كُنت سعيدة جدًّا ليلتها.

لم تخطر في بالي يومها إلا وأنا أمام المرآة ومُصففة الشعر تُصفف شعري استعدادًا لليلةِ العُمر..

كُنت دائمًا ما أُفكر في تفاصيلِ طلتي ليلة زفافنا. سألتك مرة: كيف تتخيل تسريحة شعري ليلة الزفاف؟ ابتسمت وأدرت أصبعك وأنت ترسم دوائر في الهواء..

ـ مُسدل على كتفيكِ، غير مسرح، مجعد وفوضوي وثائر كعادته..

ـ لا أعتقد بأن أحداً سيأخذ عروسًا مجعدة الشعر بجدية!

ـ من الذي لن يأخذك بجدية؟!

ـ الضيوف!

ـ وما دخل الضيوف بك! أنا العريس! أنا من سيأخذكِ بجدية!

قلت بعصبية: لكن يهمني أن يُعجب الضيوف بشكلي ليلة عرسي!

أذكر كيف رجعت بظهرك إلى الوراء ونظرت إليّ ثوانٍ تلك النظرة التي أحبها، وقلت: حسنًا! اتركيه مُجعدًا وأنا سأجبرهم على أن يأخذوكِ بجدية!

أذكر أنني ضحكت طويلًا، طويلًا على عِنادك ..

انتشلتني المصففة من تلك الذكرى مُقترحة: ما رأيك أن تتركي شعركِ مُسدلًا؟ سيُناسبكِ كثيرًا..

ـ لا لا! أُريد أن أرفعه إذا سمحتِ..

ـ صدقيني ومن خبرتي ستكونين أجمل لو أسدلنا شعرك، وسيناسب تصميم فستانك.

ـ شكرًا لاقتراحك. لكنني أُريد أن أرفعه لاعتبارات عاطفية!

ضحكت وهي تعبث بخصلات شعري قائلة: ما دمتِ مصرة، فعلى راحتك!

طلبتُ منها أن تناولني هاتفي البعيد عني على الطاولة. أردت أن أنفضك من ذاكرتي إلى الأبد، أن أطردك من ليلتي، أن أودعك ليلتها الوداع الأخير، وألقي خطاب التأبين فيسدل ستارة النهاية وتنتهي الحكاية..

فتحتُ حسابي على منصة X، ترددتُ كثيرًا فيما سأكتبه. كتبتُ كثيرًا ومسحتُ كثيرًا، وفي النهايةِ كتبت بالإنجليزية: إنني متشوقة لبدء فصل جديد من حياتي هذه الليلة مع الرجل الذي أحببته واخترته.

ختمت تغريدتي بصورة لخاتم زواج وأرسلتها للملأ بقلب ينتفض، ليجيئني تنبيه بتسجيل إعجابك بتغريدتي بعد دقيقة واحدة فقط، ولا أعرف حقيقة ما الذي أردت أن تقوله بإعجابك السريع بتغريدتي، أتُبارك زواجي حقًّا؟ أم تُبادلني الوداع؟ أتُكابر؟ أم أن الأمر لم يَعُد يعنيك فعلًا؟!

لا أدري لمَ كتبت تغريدتي بالإنجليزية، وكأنني خفتُ أن يخذلني صدق العربية ومُباشرتها هذه المرة..

لم يكن يهم! صدقني لم يَكُن يهم.

كُنت صادقة في رغبتي بالمضي بدون التفاتة ولا حسرة ولا ندم..

كُنت مُستعدة للحياة الجديدة والفصل الجديد، والحبيب الأبدي الذي اخترته

مشيتُ بعدها خطواتي إلى سلطان بقلب يرقص ويشعر مرفوع وفيروز تترنم..

أنا لحبيبي وحبيبي إلي..

يا عصفورة بيضاء لا بقى تسألي..

لا يعتب حدا ولا يزعل حدا..

أنا لحبيبي وحبيبي إلي..

حبيبي ندهلي قلي الشتي راح

رجعت اليمامة زهّر التفاح..

وأنا على بابي الندي والصباح

وبعيونك ربيعي نوّر وحلي..

وندهلي حبيبي جيت بلا سؤال..

من نومي سرقني من راحة البال..

أنا على دربو ودربو عالجمال..

ويا شمس المحبة حكايتنا اغزلي..

توقعتُ أن يطل طيفك عليَّ من بين الحضور، لكنك لم تتراءَ لي حينها، أو ربما كُنت سعيدة ومفتونة للدرجة أنني لم أنتبه..

لم تكن لتعجبك تسريحة شعري على أي حال!

أرقب فيصل وتركي من خلف زجاج غرفة الجلوس وهما يلعبان في الحديقة معًا كعادتهما، يفترشان الزرع وهما يتعاركان بنشاط وبمرح كالقطط الصغيرة. تعلو ضحكاتهما فتبدو كخلفية موسيقية مُبهجة لطفولة مثالية وحياة سعيدة وكاملة..

رفعت رأسي إلى السماء أتأمل تلك الغيمة الربيعية الحنونة التي تقترب فوقهما لتظللهما، وأنا أفكر كم يبدو كُل شيء مثالي حولي على النقيض من فوضى مشاعري وثورة أفكاري المتقدة بداخلي..

كم كُنت أتمناهما! وكم تمنيت أمومتي لهما وأن أكوّن هذه العائلة أكثر من أي شيء وكُل شيء في هذه الحياة..

لطالما كان هذا حلمي الأكبر، الأشهى، الأكثر قيمة. أن أتزوج رجُلًا لطيفًا وطيبًا ومُخلصًا أُحبه ويحبني، أنجب منه أربعة أطفال، ولدين وبنتين يشبهونني ويشبهونه، نعيشُ في بيت دافئ حميم يشبهنا ويُعبر عن هويتنا المشتركة وروحينا المتشابهتين..

بيت تكسو حيطانه اللوحات الفنية الأصلية، وتزين أرضياته قطع حريرية من السجاد الفارسي الفاخر.. وفي زواياه منحوتات لأكبر النحاتين العالمين، وفي مكتبتنا نسخ أولى موقعة من طبعات الكُتب القديمة التي نفضلها للكتاب الذين نُحبهم..

أدهشتني قدرة سلطان على العبث بكُلِ هذا! لا أعرف كيف استطاع أن يتخلى عن كُل هذا الكمال الذي كُنا نعيشه معًا بهذه البساطة ومن أجل الفتات الرخيص..

كيف تجرأ ولمَ تجرأ على أن يباغتني ويسحب البساط من تحت قدمي، حيثُ وحين هوينا جميعًا بطفلينا بلا توقع ولا استعداد ولا مُناسبة..

أهز رأسي بقوة، أحاول أن أنفض هذه التساؤلات البائسة واللحوحة من رأسي، لأدعه يمضي من بين أفكاري بدون أن أقتنع بمنطقية الأسباب التي أُدرك تمامًا ومهما تعددت بأنها ستظل أسبابًا وضيعة وواهية..

رغم نسياني للكثير من الذكريات التي كانت بيننا، إلا أن عقلي أحيانًا يبدو وكأنه قد أصبح عصيًّا على التجاوز، بات صلب الذاكرة، متجذر الذكريات المؤلمة، للدرجة يصعب عليَّ فيها المضي كالآخرين رغم تسامحي ومغفرتي اللا محدودة..

فبرغم أن التجربة قد علمتني أنني مُجرد امرأة كباقي البشر، قادرة على أن تتجاوز الخسائر وأن تتعايش مع الخيبات ككل الناس، إلا أنني أعرف بأنني عادة لا أتجاوز كل هذا إلا بعد مخاض نفسي وعقلي وعاطفي وجسدي عسير، أخرجُ منه امرأة لا تشبه التي خاضته في شيء..

أنا أعرف أنني لن أقدر على أن أتخطى هذه الضفة إلى الضفة الأخرى، إلا وقد فقدتُ جزءًا كبيرًا وعزيزًا من روحي، جزء لا يعوضه جديد ولا يمحو فقده شيء أو أحد..

لو يدري سلطان كم فقدت وكم خسرت وكم حزنتُ بسبب الفوضى التي خلفها بداخلي بخذلانه لي؟!

لو عاش سلطان مثل هذا الحزن بسببي مثلما عشتُ كُل هذا الحزن بسببه، بنفس العمق وذات القدر!

حزنتُ كثيرًا، كثيرًا يا عزيز!

بقدرِ الحُب الذي كان بيني وبينه وبقدرِ الألمِ والإهانة والفجيعة التي شعرتُ بها من خلاله..

حزنتُ إلى درجة أنني لم أقدر على أن أغفر أو أسامح، رغم أنني اعتدتُ وألفتُ وتعايشت المغفرة إلا أنني لم أقدر على أن أغفر له هذه المرة كما لم أقدر على أن أبادله بالمثل بطبيعة الحال..

أنت تعرف بأن امرأة مثلي ملعونة بالوفاء ومنحوسة بالإخلاص لا تقدر على أن ترد الصاع بالصاع، ولا أن تتراشق الغدر مع أحد، فما بالك بمن كان حبيبي قبل أن يكون زوجي؟!

يقطع صوت ضحك طفليّ سلسلة أفكاري.

أحمل كوبي وأتكئ على الباب الزجاجي الكبير والبارد في بيتي الجديد والمطل على الحديقةِ الصغيرة والحميمة التي تملأ زواياها أشجار الفُل والياسمين مثلما كُنت أتمنى وأحلم..

أرقب فيصل وتركي وهما يلعبان ببراءة من وراء الزجاج وأنا أُفكر، ماذا لو كُنت قد غفرت من أجلهما؟! لو قبلت العيش بقلب حزين مقابل أن يعيشا بسعادة في ظل والدهما ووجوده معهما؟!

أكان الزمن سيعوضني عن هذا التنازل وهذه التضحية؟! أكان القادم سيمحو ألم وخيبة وخذلان ما مضى؟! أتُدين أمومتي لطفولتهما بهذا؟! وهذه التضحية؟! أكان القادم سيمحو ألم وخيبة وخذلان ما مضى؟! أتُدين أمومتي لطفولتهما بهذا؟! أن أعيشَ ما تبقى من حياتي في وجع ليعيشا حياتهما كما كُنت أحلم وأتمنى لهما؟! أم سأظل أدور في دائرة الألم

عقابًا على عدمِ مُغادرتي لها باختياري؟!

لا أعرف! لكن تجربتي الطويلة والمريرة معك علمتني أن المغفرة تجلب مزيداً من الألمِ أحيانًا، بعكسِ ما يروج له مُرشدي الروح ومُعلمي الحياة الذين يشددون على ضرورة المغفرة ويضخمون من قيمتها في رحلةِ التشافي والتعافي..

أعتقد بأن الاستمرار في الغفران يؤدي أحيانًا لأن تستمر معاناتك وتتضخم، وأن يواصل الجاني الإساءة لك إيمانًا منه بعدمِ قدرتك على اجتثاثهِ من حاضرك ومستقبلك..

أردد كل يوم وأنا أُمارس الهرولة وأُناجي الله عز وجل "يا غفور يا جبار"، لأنني بقدر ما أحتاج لأن يجبر الله قلبي بقدر ما أحتاج لأن أغفر لسلطان، لا لأبقى معه أو ليبقى معي، بل لأنتهي منه بدون أن يعكرَ ما حدث لي صفو الحياة القادمة التي تعكر حاضرها وماضيها بفعله وبسببه..

انتهت زيجتنا. انتهت! لم تنتهِ ببساطة لأُسخف الحدث، لكنها انتهت ولا قُدرة لي على أن أُغيرَ النتائج لأنني باختصار لم أختر الأسباب..
أحاول أن أطمئنَ نفسي في أن أذكرها أنني سبق وأن تجاوزتك، أنت الرجل المتجذر بي والعصي جداً على النسيان..

أحاول أن أتذكر كيف تخطيتك، كيف مرت عليَّ الأيام التي تلت النهاية معك؟! فيبدو ذلك الزمن سرابيًّا كالطيف، مشوشًا كالضباب، مربكًا ككابوس غير مفهوم..
يبدو زمنًا بعيدًا، بعيدًا جدًّا، تفصلني عنه حياة طويلة وعمر كامل، لدرجة أنني نسيتُ فعلًا كيف مر عليَّ وعبر؟!

اليوم يبدو الحُزن الذي عشته معك بعيدًا جدًّا، قديمًا جدًّا، ضعيفًا جدًّا. سراب حُزن وشبه وجع! وكأن الحُب يُنسي الحُب، والحُزن يطوي الحُزن، والوجع يمحو الوجع..

أتساءل!
ألن أنسى كُل هذا الألم إلا بألم أعمق؟! ألن يُنسيني هذا الخذلان سوى خذلان أضخم؟!
ولمَ عليَّ أن أدور في دوائر الحُزن، ألف من حلقة إلى حلقة، أنتقل من متاهة إلى متاهة جديدة كي أغادر الخيبات السابقة إلى خيبات لاحقة؟!

أيغضبك يا عزيز أن أعيشَ حزنًا لم تتسبب لي فيه، أم يحزنك فعلًا أن أحزن؟!

أم أنك ببساطة لا تُفكر بكل ما فكرت وأفكر به الآن؟ كل تلك الأفكار التي تخطر عليَّ مُجرد أضغاث أوهام..

ربما تجاوزتني فعلًا وتمامًا، ربما تجاوزتني رغم كل الإشارات العشوائية والعابثة التي ترسلها إلي بين الحينِ والآخر، وربما عشت حُزنًا أنساك الحُزن العميق الذي عشته معي وفرحًا جديداً طوى براءة الفرح الذي عرفناه معًا..

أشعر أحيانًا بأنني أحتاج لأن أستسلمَ لهذا الخدر الذي أشعر فيه بفعلِ الحُزن.. أن أظل في فراشي حتى تطمئن كُل خلية في جسدي كما كُنت أفعل قبل أن أصير أمًّا، بدونِ أن أضطر لأن أقاومه أو أن أكابر..

في الأمومةِ يا عزيز نقفز فوهة الحُزن ونمشي على جمر الوجع بدونِ أن نلهث أو نتأوه.. نكتم الأنفاس ونخنق الآهات ونترك جروحنا رطبة أحيانًا بدونِ أن نُعالجها أو نتشافى منها كيلا تتأثر تلك الأرواح الصغيرة البريئة والنقية المعلقة فينا..

تلك الأرواح الطيبة التي تستشعر مشاعرنا وتقرأ خيباتنا بدونِ أن نُصرحَ فيها أو أن نظهرها لهم خوفًا من أن تلطخ انهياراتنا كبالغين أمان طفولتهم..

كم كانت لتُنهكك الأبوة يا عزيز؟! كم كانت لتستنزف طاقتك وتُثقل كاهلك؟!
أنت لم تُخلق لتكون أبًا. رجُل مثلك لن يحتمل الأبوة بما فيها من مشاعر والتزامات وتجليات ومسئوليات..

لا أعرف كيف فكرت يومًا في أن تصبح أبًا لأطفالي! كم كان حبي لك ضريرًا! أعمى البصر ومعدوم البصيرة..

كيف ظننتُ بأنك قادر على أن تُشاركني ذلك الحلم وأن تحمل معي هذه الأمانة؟! كم كُنت لأظلم أي طفل كنت لأنجبه منك!!

أحمد الله كثيرًا أن الله اختار لي سلطان زوجًا لأشاركه ولديّ رغم فشل زيجتنا وانتهائها. كم هو عظيم الله الذي يختار لنا ولا يُخيرنا في بعض الأحوال، حتى وإن اختار لنا بأقسى وأصعب الطرق علينا.

صحيح أن سلطان كان زوجًا سيئًا في مقاييسِ الوفاء، إلا أنه كان أبًا طيبًا ومُحبًّا وحنونًا في مُعظم الأوقات..

صحيح أنني أشعر أحيانًا أنه قد خان ولديه بخيانته لي، خاننا جميعًا، خان عائلتنا! إلا أنني أُذكر نفسي دائمًا كم كان أبًا طيبًا لفيصل وتركي، وأن الكثير من اللحظات والذكرياتِ السعيدة قد تشاركاها وعاشاها معه، أن علاقته بي منفصلة بشكل من الأشكال عن علاقته بولديه اللذين سيظلان ولديه سواء بقيت معه أو رحلت عنه..

أظن بأن هذا أصعب ما في الطلاق في حالة وجود أطفال مُشتركين، تلك العلاقة التي تظل مقطوعة ومتصلة بالوقتِ نفسه، الرحيل/البقاء الذي يكتنف العلاقة إلى الأبد..

واضطرارك لأن تتعامل باحترام مع من تزدريه، ومحاولاتك لأن تنسى أو تتناسى كل الإساءات والأيام المرة واللحظات القاسية التي واجهتها في علاقتك مع شريكك، كي تنهض بعلاقته بمن شاركته إنجابهم..
أنا مَدينة جداً لأولادي بهذا يا عزيز، أَدين لهما بعلاقة طيبة مع والدهما لأنني باختصار من اخترته لي ولهما..

أنا من اخترت أن يكون سلطان والداً لهذين الولدين بُمباركةِ من الله سبحانه وتعالى، وبقدرِ ما أنا مضطرة لأن أتحمل سوء اختياري له كزوج، بقدرِ ما أنا مضطرة لأن أتحمل نتيجة اختياري له كأب ببقائهِ بشكلٍ من الأشكالِ في حياتي من أجل طفلي..

سيظل سلطان في حياتي إلى الأبد كونه أبًا لولديّ، أعجبني هذا أو لم يعجبني، قبلت به أو لم أقبل به، ستظل أبوته لهما سببًا جوهريًّا ومُهمًّا لبقائه أكثر من أي عذر أو سبب..

أُفكر أحيانًا يا عزيز..

ظل وسيظل سلطان في حياتي بفعلِ الروحين اللتين تربطنا ببعضنا، لكن ماذا عنك يا عزيز؟! لمَ بقيت ولا زلت تبقى في حياتي ولا يربطني فيك أي ميت أو أي حي؟! لا طفل ولا شيخ ولا حتى قطة تجمع ما بيننا!
لمَ ظللت طوال هذا العمر في ذلك الركُن الخفي بداخلي؟! مرتاحًا على أريكة في زاوية مظلمة من زوايا روحي شابكًا كفيك ببعضهما صامتًا صمتًا لا يُشبه ضوضاءك مُستكينًا سكينة لا تشبه ثورتك! تراقبني بكل ذلك الحُزن القاتم الذي لا يُفهم ما وراءه؟!

أهو حُزن؟! أم انتظار؟! أم فضول أم أسى؟!

لو تدري كم يُخيفني بقاؤك بداخلي بعد مرور كُل هذا العُمر! تُخيفني جداً فكرة واحتمال أن يبقى سلطان بي حيًّا مثلما بقيت أنت بي طوال هذه المدة..
إن كان بقاؤك لا يزال مؤلما إلى هذه الدرجة، فكيف سأتحمل كُل الألم الذي سيخلفه بقاء سلطان بي إلى الأبد؟!

إلى متى ستظل روحي مُكتظة بالغائبين يا عزيز؟!
لا أعرف لمَ لا زلتما هُنا؟! لمَ ظللتما بي؟!
لمَ تبقيان وتعبثان بذكرياتي وتستعمران جزءًا ضخمًا من خريطةِ مشاعري؟! لمَ لا ترحلان كما يرحل الناس؟! لمَ لا أنتهي منكما مثلما انتهيتما بكُل بساطة مني؟!

أحقًّا انتهيت مني يا عزيز؟! أم أنني بقيت بك مثلما بقيت بي؟!

ألا زلتُ أرقبك في زاوية خفية بداخلك، حالكة وهادئة تُشبه زاويتك التي تنزوي ساكنًا فيها والتي لا زلت أشعر بأنك تراقبني منها؟!

صدقني، أنا لم أعد أكترث ولم ولا أفكر فيما أمثله لك اليوم، مثلما لم أعد أُفكر فيما بتُّ أعنيه لسلطان بعد فراقنا مهما طُرحت بداخلي من تساؤلات..

كُل ما في الأمر أنني مقهورة جدًّا من يقينهِ التام بعودتي له مثلما قهرني يقينك القديم من عدم قدرتي على الرحيل الحقيقي والأخير..

ورغم أنني أعرف أن آخر ما أريد أن يحدث في حياتي هو أن يعودَ لي فيها زوجًا مثله، إلا أن إيمانه الشديد بعدم قدرتي على العيش بدونهِ قهرني كثيرًا , قهرني جدًّا..

هو الذي لمحَ لي أكثر من مرة بشكل غير مُباشر بأن مسألة عودتنا مسألة وقت، وأن الزمن كفيل بأن يجعلني أنسى فاغفر كما أتناسى وأغفر دومًا كُل الأخطاء والزلات...

أنت تعرف بأنني أُجيد التناسي للدرجة أن يصدق المذنبون أنني قد نسيت فعلًا!

يتكئ هو على حُبي الكبير القديم له، مثلما اتكأت أنت على غرارةِ ذلك الحُب وسذاجته فتماديتما في الأذى والضرر..
الحقيقة أنني لم أتغير كثيرًا في بعض التفاصيل يا عزيز. لا زالت نظرتي بريئة للعلاقات وللآخرين، ولا زلتُ أفترض حسن النوايا، لكنني لم أعُد أغفر ولا حتى أنتقم. اليوم أنا أرحل وأنا قابضة على فؤادي بقوة كيلا يضعف أو ينزلق من بين أضلعي..

أرحل بدون أن أنتهي أو أن أنتقم أو أن أفهم. أترك كُل شيء خلفي كما هو وأمضي بدونِ أن ألتفت لأنني أعرف كم يستعصي عليَّ فهم اللؤم والخيانة والتلاعب والغدر، حتى وإن سعيت وحاولت أن أفهم كيف ولمَ يفعل البشر بالبشر شيئًا من هذا..

أعرف أنني لم ولن أقدر على فهم ذلك لأنني أؤمن بأن الله لم يخلق البشر بهذا التكوين وأن الشياطين وحدها من يفترض أن تكون على هذا الخلق وهذا الشكل الذي يفترض بأنه لا يمثل الإنسان مهما ساءت أخلاقه..

أتدري!

تصلني كل يوم رسائل سلطان على استحياء، يبدأها بالسؤال عن الولدين اللذين يراهما كل يوم، وتنتهي بسؤاله عن أحوالي ومزاجي ونفسيتي، أُجيبه عن الشق الأول وأترك ما تبقى من أسئلته بلا إجابات حتى يأتيني استفساره في اليوم التالي عن الولدين وعن موعدِ أخذهما ليقضيا بعض الوقت معه ككل يوم.

أجيبه باقتضاب فيُكرر بعدها سؤاله عني، لأواصل أنا تجاهل ذلك السؤال..

أنا لا أفعل ذلك عمدًا، لكنني بتُّ أشعر فعلًا بأن ليس لدي ما يُقال. أصبحتُ أشعر بأن اللغة ماتت بيننا، ولم تَعد هناك أبجدية تجمعنا أو لغة نتشارك في فهمها عدا تلك التي تتضمنها أحاديثنا المتعلقة بالطفلين..

بات سلطان غريبًا جدًّا عني. ليس غريبًا كالغرباء فحسب، بل بات غريبًا كالأعداء.. كأولئك الذين نتوجس منهم، نرتاب منهم، نشمئز منهم ونزدريهم، بات غريبًا لدرجة ينقبض لها قلبي..

أتساءل أحيانًا كيف لم تغدُ غريبًا بالنسبةِ لي رغم كُل ما حدث بيننا؟! لمَ لا زلتُ أشعر تجاهك بالألفةِ والطمأنينة والرحمة؟! رغم العُمر الطويل الذي أمضيناه في انقطاع ورغم الخاتمة التي لم تَكُن تليق بعلاقتنا والتي آلمتني كثيرًا كثيرًا بها؟!

كيف قدرت على أن أسامحك ولم أقدر على أن أسامحه وهو الذي كان زوجي؟!

لمَ أشعر بأنني لا زلت أعرفك؟ وكيف فقدت فجأة كُل ما عرفته عنه فأصبحت جاهلة به تمامًا؟! هو الذي اخترته وعشتُ معه وأنجبت منه ومنحت أطفالي اسمه!

أمن الغريب أن يساورني هذا الشعور؟ أنك ستكون موجودًا دومًا هُناك لتترك كُل شيء وأي شيء وتسندني عندما احتاج لمساندة!

أتكون الجبر لي يومًا بعدما كُنت كسري يا عزيز؟!

لا أعرف! ولا أعرف حقًّا إن كان الزمن قد لعب لعبته معي فمسح على قلبي وصغّر الوجع الذي عشته معك فعلًا فبات صغيرًا وباهتًا وبلا أثر! أم أن الألم لا يزال قابعًا هناك!

صامتًا في عُتمةِ لا وعيي في غياهبِ الذكريات الحالكة، بانتظارِ لحظة تثور فيها حممه الخاملة من جديد، فتتناثر الذكرى وتعم فوضاها مرة أُخرى...

غريب هو الألم وعجيبة هي الذكريات! كيف نؤمن بأننا قد نسيناها وطويناها لتفتح مرة أُخرى على حينِ غرة؟! كيف تموت وتحيا وكأن الألم قد ظل فيها حيًّا ويُعث من جديد؟!

يُخيل لي أحيانًا بأن الألم واحد مهما اختلف حجمه وشكله وقدره وعُمره.

يظل الألم واحدًا بطبيعتهِ وسطوتهِ وقدرتهِ على أن يؤثر في دواخلنا، في أن يصل إلى أعمقِ قاع في أعماقنا، وأن يستوطنه ويستعمره ويقيم أراضيه ووطنه الخاص به هُناك، حيثُ لا يعرفه أحد ولا يفهمه أحد ولا يرغب به أحد ولا يقدر على مقاومتهِ أحد.

ألم يموت ويحيا ويحيا ويموت مرارًا وتكرارًا كشبح خارق يُعيد تشكيل نفسهِ بقوة وصلابة كطينِ لازب، لا قدرة لإنسان على أن يُنهيه مهما واجهه إلا بعدما يتمكن من أن يفهم ماهيته وجذره ودرسه ورسالته التي غالبًا لن تُفهم.. أنا لم أفهم بعد يا عزيز..

لا أفهم لمَ جئتني ولمَ فعلت بي كل ما فعلت؟! لم أستطع أن أصل لمغزى رسالتك إلي، ولم أفهم الدرس الذي بُعثت لي به..

لا لمجرد أنه كان درسًا صعبًا وضخمًا وخاذلًا، بل لأنه كان مُعقدًا وعميقًا وطويلًا ومُتجذرًا بداخلي..

يُخيل لي أحيانًا بأن سلطان قد أعاد تلقيني الدرس نفسه لهذا السبب ولنفس الغاية!

لقنني الدرس نفسه على حينِ غرةٍ هذه المرة بخيبة أكبر وبخذلان أضخم، لمجرد أنني نسيت الدرس القديم ولم أفهمه معك..

أُزيح المعلّم القاسي وأُستبدل بمُعلّم أقسى كي تفهم الطالبة الكسولة الدرس جيداً هذه المرة..

وأظنُ بأنني قد فهمت أخيرًا درسي. لم أعُد بحاجة ولم أعد أقدر على أن أتحمل أية قسوة لا من البشر ولا من المعلمين ولا من الزمن..

عند نهاية أي علاقة، تتشكل لنا صورة جديدة عمن كُنا معهم، فيبدو شركاؤنا فيها غرباء مُختلفين عمن عرفناهم. تتساقط الأقنعة وتتضح لنا وجوه جديدة سافرة، ليست بشعة بضرورةِ الحال، لكنها مختلفة غالبًا عما ألفناها..

لكن ملامحك لم تتغير يومًا. دائمًا ما كُنت نفسك! في كُل وقت وفي كُل حين بوجه سافر وقح مُتحدٍّ وجريء..

لم تخشَ يومًا خسارة أحد ولا فقدان طرف في علاقة. كُنت تستبدل العلاقات كمن يستبدل الجوارب، ببساطة وسهولة وبلا ألم ولا تعلق ولا خسائر..

أتأمل أحيانًا أنانيتك اللا محدودة وقدرتك العظيمة والاستثنائية على التخلي، فتُدهشني مرونتك وتقبلك واستطاعتك على التجاوز وعلى الإقدام على المستقبل بقلب غير مُكترث ولا مُبالٍ..

لا أعرف كيف تخرج من علاقاتك بلا ندم ولا قهر ولا استنزاف! وكيف تعوض المرأة بالمرأة والحُب بالحُب؟! المكان بالمكان، البشر بالبشر، الماضي بالمستقبل، والخسارة بمكسب أو بمكاسب عدة جديدة..

أشعر أحيانًا بأنك قد تجاوزت كل الخسائر بعدما اخترت الغربة على العائلة والوطن، فلم يعد لديك ما تخسره بعدهما لأنك تُدرك بداخلك بألا ألم يضاهي ألم العيش بعيداً عن الوطن..
كم من الغريب أنني بتُّ أحلم وأسعى لأن أكون مثلك، تخيل! أصبحت قدوتي في التخلي!

اكتشفت بعد كُل هذا العُمر وكل تلك الأحكام القاسية والمتطرفة التي أطلقتها عليك بداخلي بأنك كُنت واقعيًّا وواعيًا أكثر بكثير مما كُنت تبدو ومما كُنت أنا عليه، أنا التي لطالما كُنت غير واعية لألاعيب البشر وغدر الحياة..

بتُّ أتمنى أن أكون مثلك، وأن أتحرر من تعلقي بكل شيء وأن أتخلص من كل مخاوفي في أن أفقد ما ومن أحب..

أن أعيش بلا قيود عاطفية تكبلني بأحد، ولا جذور تربطني في أرض، ولا دماء تشدني إلى عائلة أو مُجتمع..

بتُّ أتمنى أن أكون مثلك، وأن أتحرر من تعلقي بكل شيء وأن أتخلص من كل مخاوفي في أن أفقد ما ومن أحب..

أن أعيش بلا قيود عاطفية تكبلني بأحد، ولا جذور تربطني في أرض، ولا دماء تشدني إلى عائلة أو مُجتمع..

أن أعيش حُرة تمامًا، سيدة لنفسي، تحكمني اللحظة وتسيرني الراحة، أتصرف كما أشاء وأقوم بما أرغب بدونِ أي اعتبارات ولا أية حدود ولا أي مخاوف..

أن أنام من أجلِ نفسي وأستيقظ من أجلها بدونِ أن يُعكر سكينتي خوفي على أحد ما أو قلقي من حدث ما أو توجسي من حكم جائر عليّ..

أن أُصبح حُرة تمامًا وكليًّا مثلك تمامًا كما كُنت وكما ستظل وكما استطعت أن تبقى..

غبت وغاب سلطان يا عزيز، وبقيتُ وحدي مع نفسي بدونكما، بدونهِ وبدونك..

لو تدري كم يُدهشني حقًّا كيف كُنتما تجهلان نفسيكما! وكيف يجهل معظم الناس تفاصيل ودواخل أنفسهم!

يُخيل لي أحيانًا بأن جزءا كبيرًا من وجعي في هذه الحياة أنني أعرف تمامًا ما أُريده وأرغب به وما أحتاجه..

لطالما كُنت ثابتة الأهداف واضحة النوايا، أسير على خطة واحدة وخط واحد مستقيم بدونِ أن أحيد عنه، بلا عشوائية ولا عبث، لذا يختل توازني بشدة ويدور العالم بي ما إن تُباغتني الحياة بحدث أو موقف خارج حدود الخط وبنود الخطة..

لكم أحتاج لأن أغير نهجي في الحياة، لأن أهيم في حاضري بدونِ خطط ولا توقعات ولا آمال كما كُنت أنت وما زلت تفعل..

أطالع ملفك المهمل في درج مكتبي. ورقي، يدوي، بدائي، بسيط للدرجة توحي كم تقدم فيك العُمر وكم بتَّ غريبًا ومتواضعًا أمام أنظمة بلادنا وتقنيتها..

تطالعني صورتك اللا مبالية بسخرية وتحدٍّ، فأبتسم لبساطةِ توقعاتك!

أبتَّ بسيطًا إلى هذا الحد؟! أم أنك لا زلت تعتقد بأنك لا زلت تحتفظ بتلك المكانة وتلك السطوة القديمة عليَّ؟!
ما الذي تتوقعه مني بحضورك اليائس هذا يا عزيز؟! ما الذي تُريد قوله لي بهذه الخطوة الساذجة؟! ما الذي تنتظره؟! وما الذي تسعى لإثباته؟!

أنا لا أنسى حكايات الحُب التي عشتها يا عزيز، لكن الحكاية عندما تنتهي لا تبدأ من جديد، والفصل الذي يُقفل من فصول حياتنا لن يُعاد فتحه مهما خلف بي من مشاعر، ومهما ظل منه بداخلي من ذكريات ومهما صارعنا الاحتياج وقاسينا الحنين..

لا شك عندي من أن السنوات والتجارب قد استطاعت أن تُغيرنا وإن لم نشعر أو نلمس هذا التغيير..

أنا لم أعد أشبه المرأة التي كُنتها، وأنا على يقين من أنك لم تَعُد الرجل الذي كُنته مهما تمسكت أنا وأنت بما كُنا عليه..

الزمن يُغيرنا يا عزيز، يلمسنا بيديه فيعُلّم على أرواحنا مثلما يُعلم على أجسادنا ووجوهنا.

الزمن لا يمر بتجاربهِ وحكاياته ومواقفه على أحد مرور الكرام مهما كان صلب الدواخل مثلك. الزمن يُعيد تشكيلنا كُلًّا وفق حكايته ونجاحاته وإخفاقاته وأفراحه وآلامه الخاصة، ليخلق منا نسخًا مُختلفة وجديدة..

طبعًا أنا لم أعُد أنا. قطعًا لم تَعُد أنت كما كنت.. حكايتنا التي كانت لن نقدر على أن نُصحح أخطاءها أو أن نعيشها مرة أخرى، وأي محاولة لإحياء حكاية قديمة بأي صفة جديدة ليست إلا محاولة عبثية لإحياء ميت نُدرك تمامًا ويقينًا بأنه لن يعود ولن يحيا..

صدقني، لا يزال لدي كمٌّ كبير من الفضولِ تجاهك، تجاه العُمر الذي عشتهُ ولم أعشه معك..

لكنني لا أقدر على أن أسترجعَ الماضي لأعيش المستقبل مهما كُنت ضعيفة وحزينة ومخذولة وبائسة..
لن أحمل لمستقبل أيامي بؤس أيامي السابقة، ولن أسمح لمن خذلني بأن يُعاود الكرة مرة أُخرى..
الأمر لا يتعلق بخوفي من أن أتألم معك وبسببك من جديد فحسب، الأمر يتعلق بالحُب الذي لا يزال موجودًا ولم يَعُد موجودًا في الوقتِ نفسه..

صدقني، لا زلت أحبك كثيرًا، لكنني لا أحبك الحُب الذي كُنت أحمله لك.. لا في شكله ولا طريقته ولا في عمقه ولا في مضمونه. أُدرك أنك لم تَعُد ولن تقدر على أن تحبني بالصفة التي كُنت عليها أبدًا حتى وإن أردت أنا ذلك!

ستظل تُحبني لأنني أصبحت جزءًا من تاريخك، وسأظل أحبك لأنك كُنت جزءًا كبيرًا وعميقًا وحقيقيًّا ومؤثرًا وفارقًا في تاريخي..

من يقدر على أن يتنصل وينتهي من تاريخه مهما تضمن من ألم وُحزن وأسى ومهما أحتاج وسعى لأن ينساه؟!

لا أعرف كيف بتَّ تنظر إلى تاريخنا معًا يا عزيز، لكن حكايتنا لم تعُد تؤثر بي كما كانت..

لم أعد أذكرها بذلك القهر وذلك الأسى الذي كُنت أشعر به.. أشعر اليوم بأنك قد فقدت هيمنتك وتأثيرك السلبي عليّ..

أتتخيل هذا؟! أتتخيل كم تغير شكل حبي لك؟!

أتتخيل بأن رجلًا مثلك لم يعد قادرًا على أن يظل على رؤوس الأشهاد، وبأنه سيُنسى وسيرحل وسيموت ككل البشر!

كُنت أستيقظ كل يوم على ذاتِ الوجعِ ونفس الحال لأشهرٍ طويلة، أقاوم كثيرًا لأفتحَ عينيّ المثقلتين بقوى الخيبة الثقيلة الضخمة.

أحاول أن أنفض غبار الفقد الذي يُغطي جسدي ، أمسح رُفات الفجيعة الباردة عنه، وأحرك الحُزن الراكد في صدري لأنهض وأعيش يومًا طويلًا جديداً في انتظارِ النسيان الذي يبدو أنه لن يأتي، لكنني لا أملك ولا أقدر إلا على أن أنتظره..

أتدري ما هي أصعب الأوقات التي نعيشها بعد الفراق يا عزيز؟!

هي تلك التي نواجه فيها وحدتنا قبل أن ننام، وتلك التي نستيقظ فيها صباحًا لنواجه فيها نفس الوحدة!

يتوه الألم بقدرِ انشغالنا ما بين الاستيقاظ والنوم، لكنه يستفرد بنا في تلك المساحة الباهتة ما بين المنام واليقظة، فيتجلى في ساعاتِ الأرق الرمادية، وتيه كوابيسنا المضطربة ولحظات مواجهتنا للحال الجديد الذي لم نتخيل ولم نتوقع أن نُصبح عليه يومًا..

أحاول ألا أُفكر فيما مر عليَّ وعشته بسبب سلطان.

أحاول أن أتعاطى النوم لعلني أنساه، لكنني لم أعد أقدر على أن أنام كما كُنت أفعل في شبابي معك، لذا عُدتُ أُفكر فيك كثيرًا، عُدت لألجأ إليك وأبحث عنك في ذاكرتي وذكرياتي وخيالي..

ربما هي محاولة لا واعية مني لإلهاء نفسي عن غيابهِ بحضورك القديم الذي لم أعُد أذكره..

ربما حاولت أن أتمسك ببقايا وأطرافِ الحُزن الذي خلفته بي لأطفئ شيئًا من نار الحُزن التي تستعر وتتقد بداخلي بسبب سلطان، لكنني لم أجد أثرًا لحكايتنا سوى رماد رمادي بارد لم يَعُد يليق بلهيب وسعير الحكايةِ التي عشناها معًا..

أنا لم أعد طيبة وساذجة يا عزيز كما كُنت معك. لم أعد أنظر للحياة بالنظرة الوردية التي كُنت أنظرها إليها..

اليوم أنا أُدرك وأفهم بأنك مُتمسك بطرفِ الحكاية لأنك حزينٌ ويائس مثلي.

أعلم بأنك مثخن بالهجرِ ومثقل بذات الفشل الذي عشته في حكايتي من بعدك..

صدقني، بقدرِ ما أرغب وأحتاج لأن أستغل هذه المشاعر في أن أُطبب حُزني وحُزنك، إلا أنني أعرف بأنني سأندم كثيرًا لو أقدمت على هذا وسأخسر جزءًا جديداً من نفسي معك مثلما خسرت أجزاء كبيرة مني في الماضي بسببك..

أُدرك بأنني سأشوه الحكاية العميقة القديمة التي كانت بيننا بيأسي ويأسك وألمي وألمك، وبالمحاولات اليائسة المستميتة التي تراودنا لإعادة أي شعور ميت قديم لمجرد حاجتنا للشعور بالحُب الذي عشناه في الماضي وملء الفراغ الجديد الذي أعرف تمامًا بألا شيء في الماضي قادر على أن يملأه..

أُفكر فيما قد مررت به في العُمر الذي قضيته بدوني، ليس في الأمور التي فعلتها بل في الأمور التي قدرت على أن تتغلب عليها خلال هذا الغياب..

كم مرة هُجرت؟ وكم مرة هَجَرت؟! وكم مرة عادت فيه مساحات قلبك جافة وخاوية؟! أنت الذي لم يعتد على أن يعيشَ بدون حُب يُعذبهُ أو يَتعذب به!

أنت الوحيد جداً، الحزين جداً، الفارغ جداً لدرجة أنك لا تقدر على أن تعيشَ الحياة بدونِ أن يكون في حياتك من يشغلك عن نفسك فيها، رغم قدرتك العظيمة على التخلي والتخطي بلا ندم ولا أسف ولا رواسب..

أنا لست مثلك يا عزيز، فرغم أن كلينا متعلقان بالماضي إلا أنني لست مثلك!

لطالما تعلقت أنت بفكرة الحُب ولطالما تعلقت أنا بالأشخاص الذين أحببتهم، لذا لا أظن بأن في حياتي الكثير لأحكيه لك عن ذلك العُمر المفقود بيننا..

يقال "أنت لست ما تفعله بل ما تتغلب عليه"، ولقد فعلت الكثير في حياتي خلال هذه العشر سنوات

لكنني لم أتغلب فيها إلا على نفسي التي قاومت طويلًا فكرة الرحيل وإنهاء الزواج..

أتتخيل هذا! عشر سنوات كاملة لم أتغلب فيها إلا على نفسي التي قاومت طويلًا فكرة الرحيل وإنهاء الزواج..

أتتخيل هذا! عشر سنوات كاملة لم أتغلب فيها إلا على نفسي!

الحقيقة أنني لم أَكُن جريئة وشجاعة بالشكل الذي يبدو عليه قرار رحيلي..

لم يَكُن قرار رحيلي قرارًا سريعًا ولا حازمًا. ترددتُ كثيرًا وقاومت كثيرًا وراوحت مكاني طويلًا وكثيرًا، لكنني استطعت أن أرحل بقلب مفطور في نهاية الأمر. قبضت على قلبي بقوة ورحلت، تمامًا كما فعلت معك..

أشعر وأعرف بأنك تُفكر بي كثيرًا هذه الأيام، لا لمجرد أنني أُريد أن أتشبث بفكرة أنني لا زلت أخطر على بالك حتى اليوم، ولا لأنني أشعر وأحس بتخاطرك الدائم معي، بل لأنني أُدرك تمامًا بأنك لطالما فكرت بي في أوقات حُزنك، ولطالما تتشبث بي في أسوأ حالاتك وكأنني الإنسان الوحيد القادر على إنقاذك وانتشالك ما بين فوضى العودة وتيه المشاعر التي تعيشها بين الحين والآخر..

يبدو أنك لم تتغير كثيرًا وأنك لا زلت تُمارس عاداتك الحمقاء عينها..

لا زلت تسجل إعجابك بأي تغريدة أُغرد بها عن الألم والحزن والخيبة والخسارة، وكأنك تقر بمرورك فيها مثلي أو تُبدي لي تعاطفك معي من خلال إعجابك..

صدقني أنا أيضًا مُتعاطفة معك في جميع خيباتك وكُل خسائرك، ما علمت عنها وما لم أعلم! صدقني يؤلمني وسيؤلمني كثيرًا كُل ما يؤلمك وما قد يؤلمك في يوم من الأيام، لكنني لا أرغب ولا أملك أكثر من أن أتعاطف معك..

أعرف يا عزيز بأن خسارتك لوالدك لا تشبه أيًّا من الخسائر التي عشتها طوال حياتك، وبأن مواجهتك المباشرة والتامة والمفاجئة لنفسك بعيداً عن ضوضاءِ الحياة في الحجر المنزلي ستُعري أوجاع وآلام وإخفاقات ماضيك وحاضرك لدرجة أُدرك تمامًا بأنك لن تقدر على تحمّلها..

أُفكر كثيرًا كيف عشت وتعيش عُزلتك وحيداً وبعيداً عن العالم المرعوب مثلي ومثلك؟! أنت الذي لا يستطيع النجاة من ألم الحياة إلا بالهروب منه إلى صخب الحياة!

أظنُ بأن أكثر ما قد تفكر فيه والعالم يتداعى هو أن تتزوج! أن تتخذ القرار الذي لطالما هربت من اختياره بعبثية وعشوائية وبلا تخطيط لمجرد أن تجرب عيشَ الشيء الذي لم تعشه قبل أن يُسدلَ الستار، وقبل أن ننتهي جميعًا بفعل الوباء..

أتخاف الموت وحيداً مثلما كُنت تخاف العيش وحيداً؟!

أتتخبط في طريقِ الموت مثلما تخبطت طويلًا وكثيرًا في طريق الحياة فتقدم على اختيارات عشوائية ساذجة وغير مدروسة بينما ينهار ويتلاشى العالم من حولك؟!

دائمًا ما كانت طريقتك في مواجهة الانهيارات حولك عجيبة وصادمة وبعيدة عن المنطق ولا تشبه الحلول الحقيقية..

صدقني أنا قادرة على أن أتخيل قدر الارتباك الذي تعيشه في عُزلتك وفي محجرك..
أنا أيضًا مثلك مُرتبكة وخائفة ومضطربة لكن بطريقتي التي لا تُشبه طريقتك ولا تتقاطع معها..

أتتخيل كيف أواجه وسأواجه الوباء وحدي؟! كيف سأواجه الفكرة والحقيقة والغامض والمعلوم والمجهول منه؟!

أتذكر كم كان يقلقني المرض ويُخيفني الموت يا عزيز؟! تخيل كم تضاعفت هذه المخاوف بعدما أصبحتُ أمًّا! فما بالك وقد أصبحتُ أرعى طفليّ وحدي؟!

يُثير رعبي هذا الوباء يا عزيز، وأعرف بأن الموت لا يُخيفك بقدرِ ما تُخيفك الوحدة وتُثير جنونك العزلة!

أُدرك كم هي صعبة عليك هذه العودة، وكم هي قاسية عليك هذه العُزلة وإن تشاركها جميع البشر في هذا العالم كُلٌّ في بقعته وعلى طريقته..

كيف تعيش عُزلتك وحيداً وغريبًا هُنا؟!

كيف اندمجت وتكيفت وتعايشت مجدداً مع أفراد عائلتك الذين لم تَعُد تعرفهم ولم تَعُد تنتمي إليهم بفعل البعد وطول الغياب؟!

لطالما آمنت بأنك ستعود إلى الرياض ذات يوم بلا إرادة وخالي الوفاض. ها قد عُدت مثلما توقعت لكنني لم أتوقع أن يكون سبب عودتك مُخيفًا وغريبًا ومُقلقًا يهزك ويهزني ويهز العالم معنا..

أُفكر أحيانًا فيما لو أرسلت إليك لأطمئن عليك أو ربما لأطمئن بك.. رسالة بلا هدف ولا رغبة ولا توقعات، تفهم منها أنك لا تزال حاضرًا بي رغم غيابك، أو ربما تفهم منها أنني استطعت أن أُسامحك أخيرًا.

أُفكر في الاحتمالات التي قد تفرضها هذه الرسالة وما الأبواب التي قد تفتحها لي ولك، أنا المرأة التي لا تُحب المجازفات..

لا أدري إن كان يعنيك أن أُسامحك كما أظن وأفترض، لكنني لم أعُد غاضبة منك أو حزينة بسببك

يا عزيز على أي حال! صدقني أنت لم تَعُد وجعي الأكبر بعد الآن..

أشعرُ أحيانًا بأنني حزينة لأنك لم تعد وجعي، وبأنني خائفة لخسارتي الوجع الذي عرفته وألفته..

أيُعقل أنني قد أدمنت الوجع الذي خلفه ذكراك يا عزيز! أم أنني خائفة بشكل لا واعٍ من أن أعيش وجعًا جديداً لا أعرفه ولا أفهمه ولا آلفه!

أُيريحك أن تعرف بأنني عرفتُ مع غيرك حُزنًا أكبر من الحُزنِ الذي عشته معك؟!

أيستكين ضميرك إن عرفت بأنني قد غفرت لك لأن حبيبًا آخر قد ارتكب خطيئة أكبر وأعظم مما ارتكبتها أنت في حقي؟! وأنني قد عرفت معه ألما واحتضارًا أكبر بكثير مما عرفته معك؟!

أستشعر بالامتنان له على الأذى الذي باغتني فيه فمحا من خلالهِ الأذى الكبير الذي سبق وأن بادرتني به! أم سيؤلمك أن رجُلًا آخر غيرك قد خلف بداخلي أسًى دائمًا أكبر بكثير مما خلفته أنت بي؟!

وبأن كل ما حولي يذكرني وسيذكرني دائمًا به؟!

قرأت مرة لجان جاك روسو بأن للحقيقةِ أربعة جوانب، جانبك وجانبهم والحقيقة وما حدث فعلًا!

فكرتُ حينها فيما كُنت لترويه لو أنك رويت حكايتنا لأحد في يوم من الأيام! بأي صورة ستصورني وبأي صفة ستصفني وكيف ترى نفسك على الجانبِ الآخر من الحكاية اليوم، على الطرف المقابل والمواجه لي تمامًا؟!

أتبرئ نفسك من كُل الأخطاء التي ارتكبتها بحقي؟! أتُغيّب بعض الوقائع والحقائق؟! أتراني الجانية الآن لمجرد أنني تمكنت من أن ألملم شتاتي ورحلت في نهايةِ المطاف؟! أم أنك بتَّ ترى حكايتنا كما أصبحتُ أراها اليوم برمادية باهتة وبلا ضغينة ولا ندم ؟!

اليوم أنا لا أنتظر عدلك ولا أحتاج إلى حيادك. صدقني يا عزيز لم تعد تهمني الحقيقة، ولم يعد يهمني ما حدث بيننا فعلًا!

يهمني ما رأيته وما شعرت به من جانبي حينذاك، وما رأيته وما شعرت به من جانبك وبسببك!
وكيف أثرت هذه الرؤية وهذه المشاعر على حياتينا ومستقبلينا وما أصبحنا عليه اليوم..

أتساءل بيني وبين نفسي أحيانًا: هل ملكت وتملك الجرأة أو الوقاحة يا عزيز لتحكي لأحد عني بعد هذا العُمر؟! أيُعقل بأن تكون قد حكيت عني لأحد أو لواحدة ممن جئن بعدي؟!

أتتحدث عني أنا البعيدة الغريبة عنك والمعروفة للعامة وللمجتمع كوجه بارز في مجال عملي؟!

أتتشدق بعلاقتنا القديمة؟! بالماضي المر/الحلو الذي كان بيننا؟! أم تحتفظ بالحكاية وتفاصيلها بالنبل الذي أتوقع بأنك ستعاملني به والذي أستحق أن أعامل به؟!

صدقني أنا لا أخجل من حكايتنا يا عزيز. لا أخجل منها ولا أخشاها..
لكنني لن أحكي لأحد بعد اليوم عن حبيب جعله البعد والزمن غريبًا عني. فمهما كُنت قد عرفتك، اليوم أنا جاهلة بك بقدرِ ما كُنت أعرفك حتى، وإن احتفظت بمعظم تفاصيلك القديمة التي كُنت أعرفها جيداً مثلما أنا على يقينٍ من أنك بتّ تجهلني وتجهل المرأة التي أصبحتها اليوم مهما احتفظت في داخلي بأجزاء قديمة منها..

تعثرنا وتبعثرنا أنا وأنت بفعل الحياة والتجارب والآخرين وما فعلوه بنا وما فعلناه بهم..

جمعنا أجزاءنا المتناثرة، شظايانا وبقايا حُطامنا، وأصبح لكُل منا شكله الجديد الذي لم يتغير كثيراً عما كان عليه، لكنه يخفي الكثير مما تغير واختلف خلف ملامحنا وأشكالنا وتفاصيلنا القديمة، ككُل الناس ومُعظم البشر الذين يختبئون خلف نسخهم الكثيرة المهشمة والمحطمة والمختلفة عن نسخهم التي يظهرونها على الملأ والتي أصبحوا عليها..

أشعر أحياناً أنني كُنت مُباركة في أن انفصالي عن سلطان قد صادف بداية انتشار الوباء وبداية الحجر المنزلي في بلادي. فبرغم قسوة تلك العزلة إلا أنها ساعدتني على أن أعيش ألمي وحيدة بعيداً عن فضول الآخرين وتطفلهم وتعاطفهم الذي لم أكُن بحاجة إلى شيء منه في ذلك الوقت..

لم أكُن بحاجة إلا لأن أختلي بنفسي وبصغيريّ، أن أُلملم ما يُمكنني أن أُلملمه من خوفهما وحيرتهما وتساؤلاتهما الكثيرة الخائفة واللحوحة بعيداً عن أي أمر آخر..

كانا طفلاي هما أولويتي الأولى إن لم تَكُن الوحيدة في تلك الفترة من الألم، وقد ساهمت تلك العُزلة التي تسبب بها ظهور الوباء وانتشاره في أن ننكفئ على أنفسنا وعلى بعضنا لنفهم طبيعة الحياة الجديدة ووضع وشكل الأسرة الجديد الذي لم أتوقع ولم يتوقع الصغيران في يوم من الأيام أن يُصبحَ شكلها ما أصبح عليه..

أتدري يا عزيز!

بقدرِ ما ساعدتني تلك العزلة على أن أركز على ولديّ وعلى تخطيهما للأمر، بقدرِ ما جعلتني أستفرد مع قلقي ومخاوفي من المرضِ ومن الموتِ ومن الفقد ومن العدو الغامض الذي لم يَكُن مفهوم الملامح ولا مفهوم الأسباب في بدايةِ الجائحة..

لم يَكُن أحد في العالم يعرف أو يفهم من أين نشأ هذا الوباء، لمَ جاء وكم ومن سيأخذ وماذا سيفعل ومتى يرحل، وقد كان هذا كفيلًا بأن يُمرضني وأن يزيد همي الكبير همًّا أكبر، فامرأة مثلي يقلقها المستقبل ويفزعها المجهول في أفضل حالاتها، فما بالك بأسوأها؟!

لو تدري كم كُنت خائفة من أن يمد الوباء يده لي أو لطفليّ أو لأي حبيب أو غريب عني في هذا العالم يا عزيز!

فحينما تُصبح الأب الوحيد أو الأم الوحيدة، يُصبح عليك أن تتحملَ عبء العيش لترعى الأمانة التي اخترت أن تحملها.. وقد كان ذلك مُخيفًا وصعبًا خلال تلك الأوضاع غير المسبوقة وبذلك التوقيت المربك بالنسبةِ لامرأة لم تتخيل ولم تسعَ يومًا لأن ترعى طفليها كأم وحيدة، فما بالك خلال جائحة قاتلة لم يعاصر أحد في هذا العالم مثلها ولا يعرف أحد فيه متى وكيف ستنتهي!

بطبيعة الحال فكرتُ كثيرًا في أن أنتقل إلى بيت والدي خلال الحجر المنزلي كي يجد أطفالي من يرعاهما في حال أنني أصبت بكوفيد لا سمح الله، أو حتى نموت معًا جميعًا أنا وجميع أفراد عائلتي لو تدهورت وساءت الأحوال كما تُحذر منظمة الصحة العالمية طوال الوقت! لكنني اخترت أن أبقى أنا وهما في منزلنا في نهايةِ المطاف.

أردت أن أحمي الطفلين من التغيرات الكثيرة والغريبة والمفاجئة التي انتابت حياتنا بشكل مفاجئ..

رغبت في أن يستجمعا نفسيهما بداخلِ المنطقة الآمنة التي يعرفانها، وليتمكنا من صنع ذكريات جديدة في بيتهما الجديد، فالتغيرات السريعة التي باغتت حياتيهما فجأة كانت ضخمة وصادمة وكبيرة بما يكفي لطفلين في عمرهما الصغير..

كُنت أحتاج أيضًا لأن أقضي أكبر قدر ممكن من الوقت مع مشاكلي وحدي، أن أصب كل تركيزي عليها، لأكتفي ولأنتهي منها إلى الأبد..

لطالما كُنت المرأة التي تصل إلى أعمق نقطة في قاع الألم حينما تنهار بدون أن تطلب مساعدة أو عونًا من أحد ممن حولها. كُنت دائمًا ما أطلب عون الغرباء المتخصصين القادرين على أن يفهموا حقيقة ما أمر به بدون أية أحكام أو تدخلات أو تهميش لما أشعر به أو أمر فيه..

امرأة مثلي تتعامل مع معالجين نفسيين وأُسريين ومعالجين سلوكيين ومدربي حياة وفلكيين وقانونيين وأخصائيي تغذية ومدربي رياضة لم تطلب يومًا من الأيام من قريب منها دعمًا أو مساعدة أو حتى مساندة حتى في أحلكِ وأصعب الأوقات.

رغم إيماني التام بأنني محاطة بالكثير ممن يخلصون لي ويصدقون لي النية والمشاعر والنصيحة، إلا أنني كُنت دائمًا ما ألجأ إلى الغريب المتخصص الذي ينظر إليّ وإلى ما أمر به بحياد تام بعيداً عن العواطف والأحكام..

لكن الوقت في الحجر المنزلي كان طويلًا وممُلًا ورتيبًا وحزينًا لدرجة ضخمت من كُل المشاعر، لدرجة أن كل المساعدات المتخصصة لم تعد تُجدي نفعًا، فكبر كُل إحساسِ صغير وتضخم كُل شعور كبير بداخلي..

كبر الفقد وتجذرت الخسارة وعادت تراودني مشاعر الغضب والاستغلال والإهانة مرة أُخرى فعدتُ لأكره سلطان ألف مرة ومرة وعدتُ لأذكرك..

باغتتني كورونا في الشهر الثالث من العزل المنزلي. كانت أخبث من أن نمنعها عنا..

لا أعرف متى وأين وممن التقطت الفايروس وكيف تسلل إلى بيتي المنيع رغم الاحترازات الصارمة التي حرصت عليها تمامًا وكليًّا.

لم نخرج من بيتنا طوال فترة العزل. التزمنا بالحجر المنزلي بشكل تام، لم يدلف إلى بيتنا أي أحد من الخارج ولم نخالط أي سليم أو مُصاب من خارج حدود المنزل بما فيهم أهلي، وسلطان الذي ظل يتواصل مع ولديه من خلال مكالمات الفيديو طوال فترة الحجر.

كُنا حريصين أشد الحرص على تعقيم كل ما يصل إلى البيت من أطعمة ومواد وألعاب وغيرها مما يصلنا في عُزلتنا من أساسيات وكماليات.

لكنني استيقظت في صباح يوم كسول مريضة مُنهكة خائرة القوى، بحلق مُحتقن ورأس ثقيل وبألم غير معهود في عظامي ونفس مكتوم بصورة غير مسبوقة..

لم يَكُن من الصعب عليّ أن أُميز الأعراض التي بدت لي سريعة ومُختلفة عن أي فايروس قديم قد أصبت به، رغم أنني لم أفقد حاستي الذوق والشم اللتين فقدتهما لاحقًا في ثالث يوم من ظهور الأعراض، إلا أنني كنت على يقين من أنه الفايروس الغامض نفسه الذي ظننتُ بأن التزامنا بالقوانين وبتفاصيل الاحترازات سيحمينا من تسلله إلينا حتى تحل معجزة ما تكف أذاه عن البشر أو حتى يوجد له حل ما أو لقاح ما يحمينا منه كما ينتظر كل العالم ويتمنى..

ألتفت بفزع إلى ولدي الأصغر تركي والذي كان نائمًا كملاك صغير بجواري، وأنا أرجو الله في سري ألا يكون قد التقط العدوى هو الآخر!

كان تركي قد انتقل للنوم معي في غرفتي منذ أن رحل والده عن حياتنا من بعد طلاقنا، وذلك بناء على طلبه الذي لم يَكُن ليُرد أو يُناقش في تلك الحالة وذلك التوقيت الدقيق والحساس بالنسبة لصغير في مثل عُمره.

طلب تركي مني أن ينام عندي في أول ليلة غاب فيها والده، لكن الليلة جرّت ليلة أُخرى وطلب تلا الطلب حتى مرت ثلاثة أشهر كاملة اعتدتُ فيها على وجوده بجواري كما اعتاد هو على ذلك.

يخبرني صغيري كل ليلة مُبتسمًا تلك الابتسامة البريئة الحالمة بأن النوم بجواري يشعره بالأمان وأن السرير يُصبح دافئًا والنوم خاليًا من الكوابيس التي أصبحت تؤرقه في الفترة الأخيرة بعد غياب أبيه، وأخبره في سري بأن وجوده بجواري يشعرني بالطمأنينة أكثر بكثير مما يشعره، ويساعدني على أن أنام بدون أن أبكي خوفًا من أن أوقظه أو أن أقلقه...

أرقب وجه تركي الصغير وهو نائم بمنامته الزرقاء التي تزينها الديناصورات ككُلِ مناماته. يبدو كنسخة مُصغرة من والده كما هو شقيقه الأكبر، فأتذكر صديقة والدتي التي كانت تردد في كلتا المرتين اللتين زارتني فيها في المستشفى بعد إنجابي لهما "ما شاء الله الله أكبر! يشبه باباه! بتحبيه أكتر مما هو يحبك يا جُمانة!"

وأُفكر كيف عرفت الخالة فريال من ملامح صغيريّ بأنني أحببت والدهما أكثر بكثيرِ مما هو أحبني!
ولمَ يُشبهانه تمامًا بدونِ أن يأخذا شيئًا من ملامحي، شيئًا يُذكره بي مثلما تذكرني ملامحهما على الدوام به؟!

نفضت التساؤل التافه من بين أفكاري والذي لم يَكُن له أي معنى في هذا الوقت سوى أن يزعجني أكثر مما أنا مُنزعجة!

قمت من سريري بسرعةِ كيلا يلتقط فيصل الفايروس مني، على أمل ألا يكون قد التقطه بعد!

دخلت إلى دورة المياه لأغتسل، ليطالعني وجهي في المرآة مُتعبًا وشاحبًا ولا يشبه الوجه الذي نمت به قبل تسع ساعات، لدرجة لا تدعو للشك من أنني قد أصبت فعلًا بكوفيد!
مسكت بهاتفي وأرسلت لسلطان: سلطان، يبدو أنني أصبت بكورونا..

جاءتني رسائله سريعة وقلقة ومُتتالية: ألف سلامة عليك! هل أنتِ مُتأكدة! كيف أصبتِ؟! من خالطتِ؟! وكيف تشعرين الآن؟!

ـ أريد أن أجري فحص كورونا لأتأكد من الإصابة. سآخذ موعدًا وتصريحًا للخروج لأُجري الفحص..

ـ قد تكون إنفلونزا عادية.

ـ لا. ألم ظهري وعظامي ليس عاديًا. أنا على يقين من أنها ليست مُجرد إنفلونزا.

ـ ماذا عن الصغيرين؟!

ـ سأجري لهما الفحص أيضًا لأطمئن عليهما.

ـ طمئنيني عليكم! استودعتكم الله.

لا أعرف لمَ هرعت إلى سلطان قبل أي أحد! ألأنه كان وجهة الأمان الأخيرة بالنسبةِ لي؟ الإنسان الذي اعتلت أن أهرع إليه ما إن يُقبل الخوف والقلق والحُزن في وجهي؟! أم لأنه الحاضن التالي لولديّ في حال حدث لي أي مكروه لا سمح الله!

لا أعرف! لكنني لم أُفكر في غيره في تلك اللحظة..

أجريت الفحص أنا وطفلاي والذي استغرقت نتيجته يومين من المرض وعُمر من الانتظار، لتظهر إيجابية في اليوم الثالث من تاريخ إجرائه، وهو اليوم الذي تأكدت فيه من إصابتي قبل ظهور النتيجة، وذلك بعدما فقدت حاستي الشم والذوق فجأة.

بطبيعةِ الحال كان طفلاي مُصابَيْن أيضًا لكن أعراضهما كانت بسيطة وخفيفة وتشبه أعراض الإنفلونزا المعتادة بفضل من الله.
لم يستغرقا أكثر من عشرة أيام ليتشافا، وأظن أحيانًا بأنهما تشافا بسرعة لأنهما لم يَكُونا يعلمان بإصاباتهما وقتذاك!

لم تَكُن الإصابة بكورونا في ذلك الوقت مؤلمة جسديًّا بقدرِ ما كانت مؤلمة نفسيًّا بالنسبة لي.

كان هُناك الكثير ممن انتشلتهم كورونا من أقارب ومعارف، كما كانت هُناك الكثير من التوقعات في أن آثار الإصابة بها قد تتطور في أي وقت، وقد تؤثر على المدى الطويل على الكثير مما لا يُعرف ويصعب توقعه في ذلك الوقت..

إلا أنني وجدت بأن الخوف من الإصابة بالمرض والترقب أثناء انتظاري لنتيجة الفحص أصعب وأقسى بكثير من الإصابة فعليًّا به والتعافي منه، وإن كُنت قد استغرقت عدة أسابيع لأسترد شمي وتذوقي وقدرتي على التنفس بشكل طبيعي وتام.

علمتني الإصابة الأولى بكورونا بأن الخوف والانتظار دائمًا أكبر وأضخم بكثير من وقوع الحدث، مثلما شعرت بذلك في الفترة التي تلت انفصالي عن سلطان وطلاقي منه.

أصبحت أُدرك جيداً بأن الخوف هو مأزقي الأكبر، وبأنه لطالما كان معضلتي التي جعلتني حبيسة لأوضاع لم أكُن أستحق عيشها ولم يكن يفترض بي تحملها. خوفي هو ما جعلني أهدر عُمرًا طويلًا مع رجلين لم يستحقا وفائي وإخلاصي ومحبتي.

اليوم أنا أعي تمامًا أبعاد الخوف الذي عاش بي خفيًّا، وفهمت كيف انعكس ذلك على اختياراتي في الحياة وعلى الطرق التي تعاطيت فيها مع كُل موقف زعزع وزلزل الأمان بداخلي وأربكه في أعماقي.

اليوم أعرف بأن الخوف هو الوجه الخفي والحقيقي للتعلق. الخوف من الوحدة والهجر والرفض، ومن المجهول والجديد الذي لا أعرفه ولا أعرف كيف أُجازف معه أو أجازف فيه..

ورغم إدراكي لكل ذلك يا عزيز إلا أنني لا زلت حتى اليوم غير مُستعدة بعد لأُغادر منطقة الخوف رغم وعيي التام بما فعله ويفعله وسيفعله الخوف بي.

قد يبدو قراري في الانفصال عن سلطان شجاعًا وجريئًا ومقاومًا ومُواجهًا لكُل المخاوف، إلا أنني أشعر بأنني لا زلت عالقة في تلك العلاقة التي يبدو أنني لم أنته منها حتى بعدما انتهت..

لا زلت أشعر بأنني خائفة من أن أُغادر منطقة الظل ما بين الرحيل والبقاء، العتمة والنور، السواد والبياض، النهاية والبداية، والتي لا زلتُ حبيستها رغم مُغادرة سلطان لمنطقتي وخروجه منها بناء على رغبتي وقراري وإرادتي الحرة، الكاملة والتامة.

عندما حسمت أمر زواجي وقررت الطلاق ظننتُ بأنني قدرت على أن أقوم بأكثر ما كُنت أكره القيام به في الحياة، أنني استطعت أن أكسر قالب الخوف وتمكنت على أن أقدم على أكثر ما كُنت أخشاه وأخافه، لكنني لا زلت أخشى مواجهة العالم الجديد من دونِ سلطان، لا زلت خائفة من حُريتي التي كُنت بحاجة لأن أستردها ثأرًا لكرامتي وعزة نفسي. لا زلت خائفة من أن أعيش الحياة بدون من اعتلت العيش معه فيها مثلما خشيت طويلًا أن أنتهي منك كيلا أواجه الحياة وحدي بدونك، وكيلا أُجازف في الدخول بعلاقة حُب مع من لا أعرفه ولا أثق به ولم أعتد عليه.

لم أكُن أريد أن أرى الحياة إلا من خلال المنظار نفسه، ومن داخل الزاوية الوحيدة التي كُنت أعرفها بها.
لم أكُن أرغب برؤية وجوه الحياة الأخرى ولا أبعادها ولا زواياها المختلفة.

تمسكت بزاويتي ونظرتي ومن أعرفهم وأحبهم وأثق بهم مهما فعلوا معي ومهما خذلوني لمجرد الخوف من المجازفة، ومن الآخر الذي قد يؤلمني أكثر بكثير مما آلمني ويؤلمني من عرفت واعتدت على ألمهم.. اليوم أعرف أنك بقدر ما كُنت نرجسيًّا في علاقتك معي وبقدرِ ما كُنت متلاعبًا وأنانيًّا وظالما وجاحدًا، بقدرِ ما كُنت أنا خائفة ومُتعلقة وقليلة الثقة بالآخرين وبالحياة..

لم أكُن أثق بعطاء الحياة ولا بفرصها رغم أنها لطالما كانت معطاءة وسخية في منحي الكثير من الفرص، إلا أنني كُنت دائمًا ما أخاف أن تغدر بي فتنتزع مني أي شيء. لم أكُن أتوقع منها أي عوض عن أي خسارة، أو ربما كُنت أرفض تلقي تعويضاتها لأنني كُنت أريدها أن تُبقي على ما هو معي وما كُنت أراه مُناسبًا لي وما أردته في حياتي بشدة، مهما فعل بي هذا البقاء، مهما كلفني من ألم نفسي، ومهما خلفت بي هذه التجربة من أسى و وجع دائم وغير منسي ...

كُنت أنشد وأنتظر وأتوقع دائمًا أن تسير حياتي حسب الخطة، لذا كُنت أتخبط وأنهار حالما يغلق في وجهي أي باب كُنت قد سعيت لأطرقه أو عندما ينقطع بي أي طريق كنت قد خططت للسير فيه..

لم أكن أرضى بالأبواب الأخرى الكثيرة، ولا بالطرق الأخرى المختلفة. كُنت أريد خطتي وبابي وخريطتي وطريقي وخياري الذي اخترته بدون أي تدخلات من الحياة التي لا تلتزم بخطط البشر ولا بتحقيق قائمة رغباتهم في كُل الأحوال. لم أكُن أجيد التسليم ولا الرضا ولا القبول. كُنت أجزع ما إن تُباغتني الحياة بحقيقة ما أو فقد ما أو فقد ما أو حتى رفض ما..

صدقني يا عزيز أعي وأُدرك بأن كُل ما أحتاج إليه في هذه المرحلة من حياتي هو أن أُسلم بالحقيقة القاسية، وأن أرضى بالرفض الصادم، وأن أقبل بشكل الحياة الجديدة التي لم أخترها ولم أتخيلها يومًا.

أن أكسر قيود الخوف من المستقبل التي تكبل معصميّ، وأن أعيش الحاضر بدون أن أتجرع وجع ومرارة الماضي الذي لا أقدر ولا تقدر ولا يقدر أحد على تغيير أي تفصيل فيه كبيرًا كان أو صغيرًا مهما حاولنا وسعينا ورغبنا.

أحتاج لأن أتوقف عن كُل هذا الأسى الذي لا زلت أشعر به تجاهك وتجاه سلطان، وعن التفكير فيما حدث وكيف حدث ولمَ حدث ولمَ أنا من حدث ويحدث معه كل هذا؟!

لطالما كان لقاؤك ورؤيتك أو حتى مصادفتك من أكثر الأشياء التي كُنت أخشاها طوال العشر سنوات الماضية لأنني لطالما توقعت وترقبت حدوثها في أي لحظة وفي أي مكان وفي أي وقت.

شيء ما بداخلي كان ينبئني بأن مصيرنا أن نلتقي ذات يوم، مكان ما سيجمعنا سواء أخطط أحد منا لذلك اللقاء أو حتى بدون أن يُخطط له أحد منا..

كنت أؤمن وأعرف بأن دروبنا حتمًا ستلتقي وبأن الرياض قادرة على أن تتواطأ مع القدر على أن تجمعنا مهما باعدت بيننا المسافات، ولأنني لطالما كُنت خائفة من ذلك اللقاء أو ربما تلك الصدفة التي كُنت أُدرك بأن القدر يخبئها لنا لا محالة. قررت أن أُباغت الحياة وأهزم الخوف كيلا تُباغتني وكيلا يهزمني هذه المرة، خاصة بعدما وجدت أوراق سيرتك الشخصية فجأة على سطح مكتبي في ثاني أسبوع من بعدِ انتهاء الحجر المنزلي وعودتنا إلى العمل الحضوري من بعدِ طول غياب.

لو تدري كم كانت تلك اللحظة غريبة وطويلة وصادمة رغم أنني لطالما توقعت ظهورك في أي مكان وفي أي لحظة، إلا أنك استطعت أن تُباغتني في التوقيت وفي المكان!

كُنت قد وصلت للتو إلى مكتبي. خلعت نظارتي الشمسية لأعيدها إلى حقيبتي حينما وقعت عيني على الورق أمامي على المكتب وصورتك على الصفحة الأولى، مُبتسمًا ابتسامتك المتحدية العابثة اللا مبالية التي أعرف تفاصيلها وما خلفها أكثر من أي إنسان آخر..

شهقت وأمسكت بالورق بسرعة لأقرأ اسمك لعل اسمًا آخر تحمله صورتك التي أحفظ تجاعيدها وتفاصيلها الكثيرة، وأنا أُفكر كيف استطعت أن تصل إلى هنا ولمَ جئت من الأساس؟! هل تُحييني بسيرتك الشخصية لتثبت لي بأنك قد أنجزت الكثير في غيابك من دوني؟ أم تُخبرني من خلالها بأنك قد عُدت وتنوي الاستقرار هُنا أخيرًا؟ أم أنك جننت لتسعى فعلًا بأن تُشاركني مكان عملي؟! أتلاعبني ألاعيبك القديمة فقط لتربكني وتبعثرني مرة أُخرى ؟!

كيف جرؤت على أن تطرق باب حياتي من جديد؟! ولمَ الآن؟! لمَ الآن؟! أنا لم أصرح ولم أبح في أي مكان أو وسيلة تواصل بانفصالي وطلاقي، فكيف عرفت ولمَ جئت الآن؟! أم أن مجازفتك بالمبادرة هذه المرة صادفت انفصالي مُجرد مصادفة؟!

خلعت الكمامة الطبية ناسية كل التحذيرات والاحترازات المشددة. وضعتها بجواري وعدت لأقرأ سيرتك علة مرات. كان رقمك هو الرقم القديم نفسه الذي أعرفه وأحفظه منذ أكثر من خمسة عشر عامًا. لم يتغير مثلما يبدو أنك لم تتغير..

ابتسمت على الرغم مني بعدما لملمت ما بعثرته مفاجأتك بي كعادتك!

أنت فعلًا لم تتغير مهما ظننت أنا بأن الزمن قادر على أن يُغيرك. لا زلت عابثًا وجريئًا ولا مُباليًا! كيف جرؤت على أن تُقدم على خطوة كهذه؟!

كيف لم يستطع الزمن ولم تقدر الحياة على أن يجعلاك أكثر رزانة وأكثر حكمة؟! لمَ لم ولا تقدر على أن تتجاوز وتنسى وتتخطى؟!

رميت أوراقك على سطح المكتب وأنا أُفكر. عشتُ حياة كاملة من بعدك ولم أستطع نسيانك فكيف ولمَ أتوقع من رجُل مثلك أن يتخطى وأن ينسى؟!

مرت الجائحة ببطء وغرابة وصعوبة وعلى مضض. كان غريبًا ومُخيفًا حقًّا أن الحياة لم تَعُد تُشبه الحياة التي نعرفها..

لا أعرف كيف تغيرت ملامح العالم ولغة التواصل ما بين الناس خلال أشهر قليلة فجأة.

كيف أصبحت النجاة والصحة هي الأولوية المتفق عليها في مقاييس وقائمة الأولويات لكل الناس..

خوليان ريوس يقول إن "في عمر بعينه تأتي على المرء لحظة لا يعود فيها كل شيء قادرًا على الإضرار به، فكل ما يسمح لنا بالبقاء على قيد الحياة حسن"، بينما أظن بأن تجربة الوباء المجهول والمرض الجماعي جعلت لا شيء قادر على أن يضر بالإنسان ما دام لا يزال ومن يحبهم على قيد الحياة..

حينما حلت الجائحة اختلف البشر على الكثير من المعتقدات والافتراضات والسبل والحلول والأولويات..

انتزعت الجائحة من انتزعت منا وأبقت من أبقت وخلفت خلفها ويدواخلنا الكثير من التساؤلات والكثير الكثير من بقايا الخوف والترقب والهلع، فلا شيء يُثير الفزع كأن لا تكون لك القدرة على أن ترى عدوك أو أن تحس به حتى يُهاجمك وينقض عليك..

أُدرك بأن هذه الجائحة غير المفهومة لم تبدأ من حيث لا ندري ولا نفهم لتمر علينا مرور الكرام ولا لتُسجل وتدون اسمها عبثًا في التاريخ بلا سبب..

عندما تمر بنا مثل هذه الأحداث لا تُغادرنا كما وصلت إلينا،

ولا تتركنا إلا بعدما تأخذ منا ما ومن جاءت لتأخذه، وتغير فينا ما جاءت لتُغيره حتى تتوقف عن مهمتها الغامضة وتُدير زر الأضواء مُعلنة عودة الحياة من جديد لتنتهي منا وترحل عنا مُغادرة من بعد انتهاء المهمة المكلفة بالقيامِ بها..

أنا على يقين من أنك أنت نفسك قد تغيرت كثيراً بفعل الجائحة. أنت العصي جداً على التغيير والصعب الحياد عن طبيعتك الصلبة. أنت الرجل الصلف الذي لا يتبدل ولا يتغير..

فما بالك بامرأة شديدة الهشاشة والليونة مثلي اعتادت على أن تعجنها المخاوف وتُشكلها الظروف وتقلبها الأحداث كيفما أرادت؟!

قد لا تتخيل كم تغيرت أنا لدرجة قد تدفعك للتشكيك في أنك قد عرفتني يومًا!

لو تدري كم باتت همومي البعيدة حيثُ كُنا معًا تافهة وصغيرة اليوم؟! وكم أصبح ذلك الحُب ذكرى قديمة وتجربة مريرة من تجارب الحياة والزمن شبه المنسية؟!

أنا لا أقول بأنني قد نسيتك أو أنني راغبة أو حتى قادرة على نسيانك، بل أنني نسيت الكثير من تفاصيل ذلك الألم الذي عشته معك رغم تمسكي بأطراف تلك الذكرى كيلا يفلت مني عُمر طويل وحياة كاملة لم أكن أعرف نفسي فيها إلا معك..

صدقني، بقدرِ ما أردت كثيراً وسعيت طويلًا لأن أتخطاك، إلا أنني لم أستطع، وأعرف أنني لن أقدر على أن أجتثك أو أن أجتزئك من تاريخ حياتي وذكرياتي، لا لتمسكي بتلك الذكرى وتشبثي فيها فحسب، بل لأنه لولاك يا عزيز لما أصبحت أنا أنا، ولولاي يا عزيز لما أصبحت أنت أنت!

أعرف اليوم بأن ذاكرتي قد أسقطت الكثير من ذكرياتي معك كي تتوقف ذكراها وتفاصيلها عن الاستمرار في قهري وإيلامي ...

هكذا تحميني الذاكرة دائمًا. تُغبش الذكريات وتموهها فتبدو بعيدة وغريبة وضبابية، لتصبح أقل ألما وأخف وطأة مما كانت عليّ..

أعرف اليوم بأنني لم أَكُن أستحق كُل ذلك الألم الذي مررت به حينما كُنت معك، وبأنك لم تستحق ذلك الحداد الذي عشته بسببك، مثلما بتُّ أعرف وأؤمن بأن الزمن قادر على أن يطوي الحُزن الذي خلفه سلطان بي..

ليس قريبًا على كُل حال، لكنه سيطوى وسيمضي في نهاية الأمر كمعظم صور الحُزن في كُل القصص المنسية وكل الحكايات الخالدة، مهما بدا ذلك النسيان بعيداً ومُستحيلًا وصعبًا بالنسبةِ لي اليوم..

أستمع إلى مقطوعة عُمر خيرت في طريقي إلى المنزل، من بعد ساعات طويلة قضيتها في عملي بعيداً عن طفليّ اللذين تقرر أن يقضيا ما تبقى لهما من العام الدراسي في البيت ليُكملا دراستهما وتعليمهما عن بعد كمعظم الأطفال المختبئين والمنعزلين في بيوتهم في مُعظم أنحاء العالم، وأنا أفكر كم ستزيد تبعات هذه الجائحة طفولة هذا الجيل غرابة وكم ستزداد عزلتهم التي باتت طبيعية عُزلة أُخرى!

أشعر بالشوقِ لطفلي وبالخوف والقلق عليهما لاضطراري لتركهما في البيتِ لوحدهما مع مساعداتي في المنزل. كنت أشعر بأن هذه الظروف لا تشبهني، وهذه الحياة لا تشبه الحياة التي تخيلت أن أعيشها. بأن هذه الأمومة لا تشبه الأمومة التي أردتها لي ولا تشبه الطفولة التي حلمت بها لهما. شعرت بأنني قد فقدت السيطرة على كافة أمور الحياة فلم يَعُد بإمكاني إلا أن أنتظر في مكاني متفرجة...

كُنت مُتألمة جداً على كُل يوم خسراه ويخسرانه طفلاي من طفولتهما بدون أن يتشاركا تجاربها ودهشتها وذكرياتها مع أقرانهما من الأطفال كما هو شكل الحياة الطبيعية السوية، رغم إدراكي وإيماني التام بأنها مرحلة مؤقتة عابرة لا محالة إلا أنها كانت تُحسب من عداد سنوات طفولتهما التي لا تعوض ولا تُستبدل..

أستمع إلى مقطوعة عمر خيرت "خلي بالك من عقلك". تنهمر دموعي ككل مرة أسمعها فيها باختلاف أوضاعي وأمزجتي وحالاتي وأماكني وأزمنتي..

دائمًا ما كانت هذه المقطوعة رفيقة اللحظات الخاصة، الحزينة منها والسعيدة أيضًا..
(قضية عم أحمد)، (ليلة القبض على فاطمة)، (خلي بالك من عقلك)..

تأخذني بعيداً حيث ما كُنت وحيث ما كنتما.. لكل الذكريات السعيدة التي عشتها معك ومعه..

أُفكر كيف كانت لتكون الحياة وليكون الحُب بلا ذاكرة تدون تلك اللحظات وتلك الذكريات يا عزيز؟! كما كانت لتكون قصصنا وليصبح أحباؤنا منسيين بلا سطوة ولا تأثير علينا من بعد انتهاء حكاياتهم معنا ورحيلهم أو رحيلنا عنهم. كم كان ليُصبح الحُب ألطف وأسهل فلا يخشى أحد خوض غماره مرة بعد المرة، محاولة تلو المحاولة، تجربة خلف التجربة..

لو تدري كم يُذكرني عُمر خيرت بكما؟! بك وبسلطان..

كلا كما يُحب عُمر خيرت كثيراً رغم اختلافنا نحن الثلاثة في أشياء كثيرة إلا أننا لطالما تلاقينا في محبته..

تطلان بوجهيكما عليَّ عندما يعلو صوت النوتة الأولى بأيامكما وكلماتكما ولمساتكما وضحكتكما وتفاصيلكما الغارقة في السطحية والعمق في الوقتِ نفسه..

أليس من الغريب أن تتفقا على حُبي وحُبه؟! ربما هو غريب بقدر ما هو غريب أن أعترف بأنكما قد أحببتماني برغم كُل الخيبة التي لا زالت تغشاني بسببكما، وبرغم الوجع الذي طالني من خلالكما وكل هذه الفوضى العاطفية التي تسببتما لي بها والتي لا زلت أتخبط مع نفسي فيها..
أعرف وأعترف بأنك أحببتني يا عزيز وبأن سلطان قد أحبني في وقت من الأوقات وبشكل من الأشكال.
كل واحد منكما أحبني بأسلوبه وبلغته وبطريقته..
لا أستطيع أن أُجردكما من هذه الحقيقة لمجرد أنكما فرطتما بي ولم ترغبا أو لم تقدرا على أن تُحافظا على ذلك الحُب وعلى تلك الأمانة..

أُحببتني وأحبني، لكنكما لم تُحبانني بالقدرِ الذي كُنت ولا زلت أستحقه، ولا بالطريقةِ التي كان من المفترضِ وأتوقع أن أُعامل فيها..

لم يُدم الحُب الذي كان بيننا لأنه لم يُخلق ليكون أبديًّا.. لذا تغير وتبدل واختلف، فتغيرنا وتبدلنا واختلفنا وتنافرت أرواحنا بعدما تلاقت وتآلفت لعُمر طويل يُعتد به في سُلم العُمر وعتبات الزمن..

لم يَكُن ذلك التغير استثنائيًّا في خريطة المشاعر وفي أروقةِ ودهاليز الحياة يا عزيز.

كان وجهًا من وجوهها وشكل من أشكالها وسيناريو من سيناريوهاتها المختلفة الكثيرة، فلمَ توقعت أن أُستثنى من المرور بمثل تلك التجربة التي مر ويمر وسيمر بها نصف البشر؟!

لا أعرف لمَ قاومت طويلًا ولا زلت أقاوم سُنة من سنن الحياة وطبيعة من طبائع الإنسان؟! لمَ أُخلد ما لا يُفترض ولا يستحق أن يُخلد؟! ولمَ حملت وما زلت أُحمِّل التجارب أكبر بكثيرٍ مما كانت تحتمل؟!

أحببتك وأحببته وانهار ذلك الحُب كملايين الحكايات وكمُعظم قصص الحُب التي عاشها ويعيشها وسيعيشها البشر.. لا جديد في الحياة! هكذا يُمارس البشر إنسانيتهم في الحُب، يظهرون أسوأ ما في الإنسانية من خلال الحُب كما يظهرون من خلاله أجمل ما فيها..

الألم دورة من دورات الحُب، جانب من جوانبه مثلما هو دورة من دورات الحياة وجانب من جوانبها. ليس بالضرورة أن يحمل كُل حب نعيشه في حياتنا ألما لنا وإلا لَما أحب الناس وجازفوا في تجربته، لكنه قد يحمل لنا ويجلب لحيواتنا من يألموننا في الكثيرِ من الأحوال..

أُدرك بأن مقاومة المرور بالألم ليست إلا ضربًا من ضروب المستحيل، لكنها نزعة الإنسان أيضًا للسعادة والاستقرار والعيش بطمأنينة يا عزيز، وهي حق من حقوق الإنسان للنجاة والبقاء والدفاع عن النفس والذات..

تتوالى مقطوعات عُمر خيرت في الطريق الطويل إلى البيت كمعظم طرق الرياض الحية المزدحمة، والتي لم تَعُد مُناسبة للحُزن والندم كما كانت في الماضي خاصة في أيام المناسبات والاحتفالات الوطنية..

لم تعد هذه الرياض تلك الرياض يا عزيز. لم تعد تلك الأم التي نعود إليها لنحزن طويلًا وعميقًا في أحضانها..

هذه الرياض القوية المزدهرة السريعة المتشافية، لم تعد تتوانى على أن تسرق الحُزن من قلوبنا وأعيننا لننهض بها وتنهض بنا من جديد ولنصبح أقوى بكثير مما كنا عليه قبل الألم وقبل الانهيار لم تعد تسمح لنا بأن نطيل الحزن كما كنا نفعل ...

ألتفت إلى العلم الأخضر الشامخ الضخم الذي يرفرف في مركز العاصمة السعودية الأولى حيث الدرعية على يسار الطريق. شعرت به وكأنه يرفرف ويخفق بداخل صدري..

الشوارع خضراء، الأعلام تُغطي السيارات وأسطح المنازل، والأغاني الوطنية تصدح من داخل صفوف السيارات يميني ويساري..
ألتفت حولي أراقب الناس المحتفلين في الشوارع وفي السيارات مُستشعرة طاقة الفرح والفخر التي لا قدرة لشيء على وصفها..

ابتسمت على الرغم مني، وأمسكت بهاتفي لأبحث في قائمتي للأغاني عن أغنية وطنية تبهج ما تبقى من طريقي إلى المنزل. دائمًا ما كانت (فوق هام السحب) أغنيتي الوطنية المفضلة منذ الطفولة مثلما هي لمعظم السعوديين من أبناء جيلي على ما أظن...

فوق.. فوق هام السحب وإن كنتِ ثرى..

فوق.. فوق عالي الشهب يا أغلى ثرى..

فوق هام السحب..

مجدك لقدام وأمجادك ورى..

وان حكى فيك حسادك ترى..

ما درينا بهرچ حسادك أبد..

أنتِ ما مثلك بهالدنيا بلد..

والله ما مثلك بهالدنيا بلد..

من على الرمضا مشى حافي القدم يستاهلك..

ومن سقى غرسك عرق دمع ودم يستاهلك..

ومن رعى صحراء الظما أبل وغنم..

يستاهلك يستاهلك يستاهلك..

حنا هلك يا دارنا برد وهجير..

حنا هلك يا دارنا وخيرك كثير..

فوق فوق هام السحب..

من دعى لله وبشرعه حكم يستاهلك..

—

ومن رفع راسك على كل الأمم يستاهلك..

ومن ثنى بالسيف دونك والقلم..

يستاهلك يستاهلك يستاهلك..

نستاهلك يا دارنا حنا هلك..

أنتِ سواد عيوننا شعب وملك..

فوق فوق هام السحب وإن كُنتِ ثرى..

فوق عالي الشهب يا أغلى ثرى..

تبقت ثلاثة أيام على الثالث والعشرين من سبتمبر، أول عيد وطني من بعد الجائحة، وذكرى لقائنا الأول..

من الغريب أنني لا أذكر تاريخ لقائي بسلطان بدقة. أذكر بأنني التقيته في أولِ أسبوع انتقلت فيه لشقتي في نيويورك، لكنني لا أذكر في أي يوم بالتحديد كان بذلك الأسبوع..

أحتاج لأن أعود لورقة قديمة ما أو رسالة ما لأتمكن من تحديد التاريخ.. وإن كُنت مُتيقنة بأنني قد قمت بإتلاف كل الأوراق ومسح كل الرسائل التي كانت بيننا..

لا زلت أذكر وسأذكر دائمًا لقائي الأول بك يا عزيز مهما مر وسيمر من عُمر على ذلك اللقاء..

الثالث والعشرون من سبتمبر، غرة الميزان كما نحفظها في وطننا، ذكرى توحيد المملكة العربية السعودية الثالثة..

كم كان من الغريب أن ألتقيك في يوم لا منسي كهذا اليوم؟! اليوم الذي لن أقدر يومًا على أن أنساه أو أن أتناساه..

يوم تخضر فيه الأرض وتصدح به سماؤها. فخورة ومُنتشية برجل استطاع أن يسترد أرض وملك أجداده ويوسعها ويوحدها تحت لوائه من جديد..

كيف أنساك يا عزيز وتاريخ لقائنا خالد مُخلد في التاريخ وضارب في أقصى وأعمق نقطة في شعوري ووجداني وانتمائي؟!

لا أعرف لمَ كُنت لحوحًا جدًّا تلك الليلة يا عزيز؟! لحوحًا جدًّا في حضورك في ذهني وروحي وأنا أستشعر تلك الطاقة الوطنية المشتعلة في كُل مكان..

كان صف المحتفلين أمامي طويلًا ومتوقفًا..

أمسكت بهاتفي وبحثت في قائمة جهات الاتصال عن اسمك. رفعت رأسي إلى الصف الطويل الممتد إلى ما لا نهاية وأنا أُفكر.. ماذا عساي أن أقول لك؟! ماذا أقول ولمَ أقوله الآن؟!

مضت عدة أشهر على تقدمك بطلب العمل الذي تجاهلته تمامًا، فلمَ أتصل بك الآن؟! لمَ هذه الليلة؟!

فُتح الطريق وبدأت السيارات أمامي تتقدم ببطء.. وضعت هاتفي بجواري وأنا أنفض من أفكاري وأدندن..

"أنتِ ما مثلك في هالدنيا بلد، والله ما مثلك في هالدنيا بلد"..

انتشلني صوت نغمة أربعة رسائل مُتتالية على هاتفي من انشغالي. كُنت منغمسة جداً في قراءة أحد التقارير على الشاشة أمامي، فغداً تبدأ إجازة العيد الوطني ويتوجب عليّ أن أُنهي كل المهام المعلقة قبل نهاية اليوم. التفت إلى هاتفي بقلق فطالعني اسم سلطان على الشاشة..

ـ "اشتقتُ إليك جمانة!"

ـ "لا قدرة لي على العيش بدونك أكثر مما عشته بدونك."

ـ "أخبريني فقط بأي شيء أفعله لترضي وتسامحيني."

ـ " اشتقت لصباحات عائلتنا! اشتقت لكل شيء."

حذفت الرسائل بدون أن أرد عليها. أردت أن أمحو كُل كلمة وكُل حرف وكل شعور وصلني منه وأفسد يومي!

شعرتُ بأن رسائله قد زادتني غضبًا. إيمانه بقدرتهِ على التأثير بي وبقدرته على استرجاعي بعد كُل ما اقترفه بحقي أشعرتني بالإهانة..

كان من الواضح أنه لم يعرفني فعلًا مثلما لم أكُن أعرفه.. كلانا كان جاهلًا بالآخر، أنا التي لطالما أمنت جانبه وهو الذي لطالما ضمن جانبي!

فتحتُ درج المكتب لتُطالعني صورتك على أوراق سيرتك الشخصية المهملة في درج مكتبي منذ أشهر. شعرتُ بأن ابتسامتك اللحوحة تتحداني كُكل مرة أطالعها فيها بأن أتصل بك..

كم كُنت أقاوم هذه الرغبة طوال الأشهر الطويلة الماضية! مثلما قاومت رغبتي بأن أُتلف الأوراق وكأنك لم تعبر وكأن شيئًا لم يَكُن..

لا أعرف لمَ وكيف رفعت سماعة هاتفي مكتبي واتصلت برقمك من دون أن أُفكر فيما سأقوله لك! ألرغبة ماسة بداخلي لإهانة سلطان من خلالك أم لشعوري بالحاجة للانتهاء منك إلى الأبد هذه المرة؟!

كانت النغمات بطيئة كُعمر طويل. قررت أن أنهي الاتصال لكنك أجبتني بصوت مُستعجل بعد النغمة الثالثة..

ـ آلو!

حاولت أن أجعل حروفي مُتماسكة قدر الإمكان:

صباح الخير..

صمتٌ ثوانٍ لتُجيبني بصوت مُتوجس ومُتشكك: صباح النور!

ـ عبد العزيز، معك جُمانة!

حبست أنفاسك ثوانٍ ومن ثم تنهدت تنهيدة طويلة وحارة لكنك لم ترد. استرسلت مستحثة إياك على الرد: كُنت أدرس معك في فانكوفر!

فاجأتني بصمتك، فتبعثرت بداخلي كُل الحوارات التي تخيلتها في الماضي.

كُنت قد تخيلت طوال السنوات الماضية عشرات الإجابات وردود الفعل عدا الصمت الذي لم أتوقعه ولم أعرف بمَ أرد عليه هذه المرة..

سألتك باستنكار وعتب على الرغم مني: عزيز! ما تتذكرني؟!

ليجيئني صوتك مرتجفًا ومخنوقًا بالدمع: لا للأسف! ما عاد أتذكرك!

أثير عبد الله النشمي

٢٢ فبراير ٢٠٢٢

حبيبتي الرياض

تم بحمد الله